الفصل الثاني [٤٥]

طواف العالم
parcourir la terre

كان البشر خلال آلاف السنوات يتأملون السماء، ويحلمون أمام حركة النجوم والمجرات، يحلمون بالطيران والترحال طائرين كالعصافير. كانوا مفتونين ويرتجفون أمام ظهور الكواكب وغيابها، الشمس والقمر والكواكب الأخرى. لقد اعتقدوا أنهم اكتشفوا في السماء الدليل على وجود الله، وأنه الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، كما وجدوا آثار الآلهة والعقول. لقد رغبوا في أن يكون لهم جناحان، وأن يطيروا. ولقي عدد كبير منهم حتفه لأنه أسرف في تأمل القبة السماوية، وأكد عدد آخر منهم أنهم عرجوا إلى السماء. ولكن من ذا الذي استطاع، ما خلا الآلهة، من الكائنات البشرية الإقامة إقامة دائمة في السماء؟ فالآلهة السماوية الأكثر بدائية وقدماً هي آلهة بعيدة ومرهوبة الجانب، لا تهتم إلا بعض الاهتمام بشؤون الأرض التي لم يكن الإنسان قد ظهر على سطحها بعد. وبعد حين أصبح جبل **الأولمب** عند الإغريق مكان إقامة آلهة عديدة كانت تحب مراقبة العالم، ولا تتردد في التدخل في شؤون البشر، **والأولمب**، مهما كان ارتفاعه هو مجرد جبل. وبذلك اختلط فضاء الأرض والسماء. ليس هناك سماء بدون أرض ولا أرض بدون سماء. ويعلم الإنسان الذي نهايته الموت، وإن كان يعتقد أن روحه خالدة، أن غبار جسده سيختلط بغبار الأرض.

ولكن الإنسان على الرغم من ذلك أعرب منذ فجر الحياة عن إعجابه بالأرض. ففي القرن السابع قبل الميلاد كان أوائل المفكرين الإغريق من مدرسة ميليت Milet يحبون تخيل الأرض، فالفيلسوف **تاليس المليتي** يراها قارباً ضخماً يسير في فضاء واسع من الماء. ويعتقد **أناكسيمين**[1] Anaximène أن هناك صحناً على شكل غطاء قدر في مركز الكون. وكان ينبغي الوصول حتى عهد **فيثاغورس** Pythagore ليتكوّن حدس الأرض الإهليليجية، وكان على البشرية أن تنتظر **أفلاطون** للتأكد من ذلك، و**أرسطو** ليبرهن عليه. حينئذٍ أصبح بإمكان الجغرافيا أن تفخر بذلك.

ولم يفت كبار المتصوفة، مفكرو السرمدية والخلود في الأديان كلها أن يكون لديهم تصور للبلد الذي يحلمون به، وبمناظره، وبأماكنه، وبالبشر الذين يجوبونه ويسكنونه، ففي القرن الرابع الميلادي يكتب **أوغسطين الإفريقي**، رجل الوجد، ورجل السلطة، ورجل المعتقد، ورجل الفعل، أسقف **هيبون**[2] Hippone:

إن جمال الخلق يتألق في مفاتن السماء والبر والبحر المتنوعة التي لا تحصى، في وفرة ضوء الشمس والقمر والنجوم والتماعها العجيب، في ظل الغابات، في ألوان الأزهار وعطرها، في العدد الغفير من العصافير المتنوعة كل التنوع... فكروا في العجائب المختبئة التي يشتمل عليها الجسد البشري، وفي قوة العقل التي تبدو على شكل تزايد حقيقي للمخترعات...[3] وبعد حين نجد في **القرآن** أن السورة السادسة عشرة، **سورة النحل** تفصل في الخلق بهذه الآيات:

---

(١) أناكسيمينس من مدينة ميليت (٥٨٥ ق.م - ٥٢٥ ق.م) كان من فلاسفة ما قبل سقراط. [المترجم]

(٢) الاسم اللاتيني لمدينة عنابة في شمال شرق الجزائر. [المترجم]

(٣) مقاطع من كتاب: فيما يخص مدينة الله، ٢١، ٢٤، ٤ - ٥. قارن بـ دومينيك دو كورسيل، أوغسطين أو عبقري أوروبا، باريس، لاتيس، ١٩٩٦م، ص٢١٦ - ٢١٧.

Extraits du De la cité de Dieu, 21, 24 4 - 5. Cf. Dominique de Courcelles, Augustin ou le génie de l'Europe, Paris, Lattès, 1996, p. 216 - 217.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۗ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ ﴾ (سورة النحل: الآيات ٣ – ١٨).

[٤٦][٤] وبذلك يكون حلم السماء ترافق مع ما يمكن أن نسميه، بالتوازي مع الأول، حلم الأرض، ترافق معه بدل أن يلغيه، وشجع عليه، مما سمح برؤية الأرض من منظور مختلف. الحلم بالأرض بفضل السماء يعني أن نرى الأرض رؤية مختلفة!

في عصر مركبات التجسس الفضائية، حيث لم يعد هناك أرض غير معروفة على سطح كوكبنا، من يبقى قادراً على تذكيرنا بأهمية استكشاف الأرض استكشافاً عميقاً، بأهمية المسير، وبأهمية الغدو والرواح، وبأهمية عبور المحيطات والقارات مرة بعد أخرى، من يبقى قادراً على ذلك إن لم يكن الفنانون القادرون على رسم الأرض الحقيقية، الأرض التي لا تتلخص في مكان واحد، أرض ما لم يسبق قوله، مقتفين

(٤) تبدأ الصفحة ٤٦ من الأصل الفرنسي بعد قوله تعالى: (وسخر لكم...). [المترجم]

أثر مستكشفي الزمن الغابر؟ ويقترح علينا الشاعر أرثر رامبو Arthur Rimbaud مضمون قوله:

في أمسيات الصيف الزرقاء أمضي عبر الطرق الضيقة... ويسخر نيتشه Nietzsche، بعد **مونتيني** من الثبات فيقول: **إن الأفكار ذات القيمة هي الأفكار التي تراودك وأنت تسير.** أما الفنان **جوان ميرو** Joan Miró الذي توفي عام ١٩٨٣م في **بالما دو مايوركا** Palma de Majorque فإنه أسس رؤيته الشمولية لأرض كونية، كانت أكثر فأكثر حضوراً في سياق لوحاته، انطلاقاً من مسقط رأسه في **كتالونيا** Catalogne، بوصفها معيناً لا ينضب من الأحاسيس، والأشكال والألوان والمواد.

لقد أعلن ذلك فقال:

الأرض، الأرض، لا شيء إلا الأرض. إنها الأرض، الأرض: إنها شيء أقوى مني. لم أشعر في أي مكان بصدمة بهذه القوة إلا في مونترواغ[٥] Montroig**، إنها الصدمة التمهيدية، البدئية التي أعود إليها على الدوام.**

وقد حدد قوله هذا موضوع المعرض الذي أقامه متحف **تيسان – بورمينيزا** Thyssen - Bornemisza في **مدريد** Madrid، "ميرو – الأرض"، في صيف عام ٢٠٠٨م.

إن ذلك الاختبار العميق للأرض هو ما يقدمه لنا بما لا مزيد عليه من الوضوح المصور **يان أرتروس – بيرتران** Yann Arthus-Bertrand في غرة القرن الحادي والعشرين هذه، بفضل الطائرة، وبفضل فن التصوير، عبر إحصاء جوي وتصويري "لأقسام العالم":

أمتلك رؤية شاهد... لا أتناول إلا واقعة صغيرة ولكنها تظهر مكبرة... إن ذلك ما هو على الأرض: إنها آثار، بل بالأحرى ندوب.

---

(٥) منطقة جميلة في كتالونيا في إسبانيا، في جبال البيرينيه. [المترجم]

إن المصور يعي وهو يقدم لنا بطريقة غير مسبوقة وفنية أشكالاً وألواناً تختلط فيها جوهرياً عناصر الكون التي يتكون منها العالم، الماء والتراب والهواء والنار مع البشر، وهو يمنحنا من السماء فرصة الإحساس بما أصاب الأرض من جروح، إنه، وهو يفعل ذلك يعي، يسهم في حفظ الأرض طليقة، غير مستهلكة ألبتة، لا تعارض عليها بين الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي. إنه في كل ما يصوره سواء أكان التصدعات التي تحدثها الهزات الأرضية، أم مكبات الزبالة، أم الفيضانات، أم الحرائق، أم كثيب يقطع الطريق، أم قماشاً مصبوغاً يجف في الشمس، أم ذلك الشخص الذي يركض في حقل ما، إنه في كل ذلك يمنح فرصة للحلم وللملاحظة ما تنزع إلى الأشياء وكيف ربما نستطيع أن نتوافق مع تطورها. إنه يصنع من كل عالم صغير عالماً كبيراً. لا يوجد هنا تمثيل لعالم ذي نهاية بوصفه محصوراً في قدره، ولكن انتباه لا ينفد منصباً على تحولات ذلك العالم وتعدداته البارعة والمطردة.

إن حلم الأرض، هذه الرؤية المختلفة للأرض يسترعي هنا انتباها، وإحساساً متيقظاً لعالم [٤٧] واحد ومتعدد. إن كل صورة من صور **يان أرتروس – بيرتران** تنتمي إلى غير المتوقع وإلى المتحرك. وكتابه **الأرض كما نراها من السماء** هو رحابة في الممكنات، ودعوة هي في الوقت نفسه حلمية وواقعية لتطوير استعدادنا لاستقبال ممكنات أخرى غير تلك التي نعرفها ونتوقعها.

إذا كانت الصور تلتقط المساحة الظاهرة فإن الحكايات الأسطورية تتم ذلك، وتمضي أكثر في العمق. إنها صور "منزلنا". في مالي، أو في جزر المالديف، أو في أي مكان آخر، إنها الصور نفسها.

أليس الرؤية المختلفة للأرض، رؤيتها من السماء أمراً ضرورياً لتكييف العالم مع حاجات البشر، وتكييفها مع الموارد المحدودة لبيئتها، لبدء الحياة؟ إن **يان أرتروس – بيرتران** يسمح لنا أيضاً عبر عمله الفني بإعادة تعريف ما يمكن أن يكون ضرورة

إستراتيجية للانتماء إلى العالم، مستوحاة من **الاستقبالية**[٦] Prospective ومن **التسآلية**[٧] maïeutique السقراطية. إن المقصود هو الرؤية العميقة، عمودياً، أكثر من الرؤية بعيداً، أفقياً، لكي ندرك السيرورات الداخلية للأشياء وللأوضاع. كما أنه يمكن للصور أن تحرر منزع الإبداع لدينا، وقدرتنا على التكيف بأن تسمح لنا بالشعور أن جذورنا ضاربة في الأرض نفسها، وأننا معنيون بمستقبل واحد لهذه الأرض، مع التنوع وليس ضده. ويلاحظ **يان أرتروس – بيرتران أنه كلما حلق عالياً ازداد إحساسه بأن هناك أرضاً واحدة**. وبذلك يتراكب، عبر الصور، المحلي والعالمي. ذلك هو ما نسميه "ضوء الأرض"، عالم واحد ومتعدد، يقدمه لنا المصور، جاعلاً من ذلك صدى لافتتان رواد الفضاء وهم يتأملون الأرض من على متن مراكبهم الفضائية.

الأرض واحدة، والعالم ليس كذلك، هكذا يبدأ تقرير **غرو هارلم بروندتلان** المعنون: **مستقبلنا جميعاً**، وهو تقرير يعود إلى عام ١٩٨٧م. ويؤكد **بروندتلان** في عام ٢٠٠٢م: **ينبغي أن نفهم أن كل واحد منا هو جانب من نظام عولمي**. وبذلك يمكن لحياتنا أن تغتني باختلافات الآخرين. وتظهر في هذا النظام العولمي كما يخبرنا المصور بذلك أيضاً المدن والأرياف على حد سواء: لقد جعلني ركوب الهواء أشعر بذلك، لأن ذلك مما نحسه، إحساساً ملموساً جداً... إننا اليوم جميعاً مسؤولون[٨].

بذلك لا تني الألوان والأشكال من التحرك في انسجام مطرد، وكل جزئية تكون جاهزة لتكبر، ولتنبجس بجانب جزئيات أخرى، كل واحدة منها تظهر إلى جانب الأخرى، وكل واحدة تدعم الأخرى. كيف استطاع العالم الواحد والمتعدد أن

---

(٦) علم يدرس أسباب تقدم العالم المعاصر، ويتنبأ بالأوضاع المستقبلية التي تنجم عن الأسباب الحاضرة. [المترجم]

(٧) عند سقراط، طريقة في استخلاص الأفكار الموجودة في الذهن بطرح الأسئلة. [المترجم]

(٨) كلام أوردته آن ماري دوكرو في: **الطوباويون الجدد للتنمية المستدامة**، باريس، أوترمان، ٢٠٠٢م، ص٢٣٢ – ٢٣٤.

Propos recueillis par Anne - Marie Ducroux, Les nouveaux utopistes du développement durable, Paris, Autrement, 2002, p. 232 - 234.

يفرض نفسه شيئاً فشيئاً على الملاحظة الحالمة والواعية للبشر، على مساراتهم وعلى علاقاتهم، هذا ما سنحاول فهمه هنا عن طريق التذكير ببعض الأحداث الرئيسية.

١- التفكير انطلاقاً من العالم الذي طَوَّفْنا فيه

I. Penser à partir du monde parcouru

إذا كان التجار اخترعوا الديمقراطية والنقود في **أثينا**، وأرسوا دعائم الحرية بوصفها غاية، والثروة بوصفها هبة من السماء فإن الحرية الثقافية والفنية والإنسانية التي كانت تسود في **البندقية** التي كان يحكمها أمراء كانوا تجاراً وجنوداً في الوقت نفسه ستسمح في القرن الثالث عشر الميلادي بتجربة رائعة خاضها بعض التجار البنادقة. ذلك أن رؤية الأرض رؤية مختلفة لم تكن وليدة نهاية القرن العشرين بفضل الطائرة والتصوير. بل إن أولئك التجار البنادقة الذين يتمتعون بروح المبادرة وبالجرأة، الذين غابوا عن مدينتهم عدداً من السنوات ستكون لهم رؤية مختلفة، إنهم اغتنوا باختلافات الآخرين، ففي أوروبا التي كانت بكليتها تحت السيطرة السياسية والفكرية [٤٨] والثقافية للكنيسة المسيحية، في حين أن البلاد المحيطة بها كانت قد أنهكتها حرب المئة عام كان أولئك التجار أول من استطاعوا معرفة الأشياء عن قرب، والمعني بذلك أن ما يعرفونه كان مرتبطاً بالمكان الذين كانوا فيه، وبما كان يفعلون، إذنْ، بأن يروا رؤية مختلفة وبحرية. وبذلك يكون الكتاب العجيب، كتاب **وصف العالم** للرحالة والتاجر **ماركو بولو** Marco polo، في القرن الثالث عشر الميلادي يحتوي، دون أي طموح لتعاليم ولا لمعرفة روحية كان يمكن أن تكون هي المعرفة التي تبناها مجمع التجار، على معارف عادية لمراقب عادي: إن فعل Deviser يعني بالفرنسية القديمة نظر، راقب، تلك اللغة التي هي لغة محلية وليست لغة علمية. لقد تلت رحلات **ماركو بولو** ووالده وعمه رحلات المبشرين الفرانسيسكان، ولكن البنادقة، على عكس رحلات هؤلاء الذين كانوا مهتمين بجعل أولئك الذي يصادفونهم يعتنقون قيمهم ومعتقداتهم، كانت لهم رؤية واسعة للغنى الإنساني، وكانوا يحسون أنهم طرف فاعل في العالم الذي

يطوفون فيه. إن كتاب **وصف العالم** حكاية تظهر بوضوح كيف أن التجارة تسمح بتنظيم أشكال التضامن، وتحويل الآليات. ويبدو أن روابط المساواة بين الأفراد في تشغيل العالم تحتل لدى الرحالة مكانة عالية تجعله يستفيض في سرد تفاصيلها بعد أن عاد إلى **أوروبا**، أكثر مما يستفيض في الحديث عن المؤشرات المادية للنجاح التجاري لرحلته، مع أن تلك المؤشرات كانت أمراً ذا بال.

وإنه لمن الصحيح أن أنصار مملكة **جنوة** Gêne، الأعداء التقليديين **لأهل البندقية** سلبوا هؤلاء الرحالين قسماً كبيراً من أمتعتهم قبل أن يعود هؤلاء إلى **البندقية** في عام ١٢٩٥م. وإن ما هو دال بالبداهة أن **ماركو بولو** الذي نجا من كثير من المهالك المتنوعة في تطوافه حول العالم الذي استغرق ٢٤ عاماً عبر **آسيا الوسطى حتى الصين وبكين**، وجد نفسه سجيناً في جنوة عام ١٢٩٨م، مقطوعاً بذلك عن جذوره الاجتماعية والإنسانية، كما لو أن بعض مؤسسات مجتمعه الغربي الخاص عدت نفسها مهددة، وينبغي عليها أن تواجهه بتطرفها الاقتصادي والتقني والفلسفي. ولكنه في تلك المدة التي قضاها في السجن عام ١٢٩٨م وجد القوة اللازمة لكي يملي حكاية مغامراته على أحد السجناء من مرافقيه.

إن **ماركو بولو** الذي غادر **البندقية** وهو بعد شاب صغير، ولم يكن مثقفاً، ولا يمتلك لا ثقافة لاتينية ولا ثقافة دنيوية، وبالتالي لم يكن له أي تزكية لنفسه للكتابة أو لإبراز القدرات، هذا الرجل يمتلك معارف وتجارب سمحت باستكشاف المستقبل، ونجد في هذا السياق أحد الأطالس الجغرافية **الكتالونية** الذي وضع في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي يستمد حرفياً أسماء الأماكن، بل قطعاً تصف المسارات التي سلكها التاجر **البندقي** دون أن يكون هذا الأخير قد قدر بالضبط التحديات الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية لما أورده في رحلته. ونعلم أن كتابه **وصف العالم** هو واحد من المصادر التي اعتمدها **كريستوف كولومبوس** Christophe Colombe الذي كان من **جنوة** غير مدافع، وهو الذي اكتشف **أمريكا**.

ولكن ماركو بولو في نهاية رحلته التي استمرت أربعة وعشرين عاماً كانت تنتابه على وجه الخصوص، وعلى مستوى عصره بالطبع، مشاعر ما يمكن أن نسميه اليوم سمات العولمة، أي الحركية الكلية، التغيير في الزمن الفعلي، وحتى عدم التحديد. كيف يمكنه الاستمرار في ادعاء الانتماء إلى أرض ما، البندقية، التي لم تتعرف إليه إلا بصعوبة عندما عاد إليها في عام ١٢٩٦م، ونسيته نسياناً تاماً؟ لقد كان يمضي في عكس اتجاه الرأي السائد المعتمد في الغرب، ويرهن على قدرة مدهشة على استقبال ما أثار إحساسه و عقله ودونه. إن وصفه الحماسي لإمبراطورية الخان الكبير، التي قدمها بإرادته بوصفها نموذجاً لمدن الغرب ودوله، يحتوي على سبيل المثال على فكرة مجتمع منفتح مما يضع موضع الشك، بل الاستحالة أي مرجعية موغلة في الانحياز إلى محدودية أصله.

كل شيء ضخم في هذه الإمبراطورية: المسافات والارتفاعات، الصحارى والأنهار، المدن والقصور، الجيش والثروات. وكل شيء فيها كثير العدد أيضاً: الأشجار والعصافير والحيوانات والبشر والأطفال والزوجات. وكل هذه الوفرة يسيطر عليها "الخان الكبير، أعظم سيد كان وهو كائن ألبتة"[٩]. وهو سيد كان الرحالة البندقي فخوراً بأنه كان مبعوثه غير مرة.

[٤٩] وبذلك يندرج كتاب **وصف العالم** ضمن تقليد الفنون الحرة التي كانت من العصور القديمة حتى العصور الوسطى تثقف العقول، وتثير على وجه الخصوص الفضول "لمعرفة الأشياء". إن والد ماركو بولو ذهب بولده إلى رحلة تثقيفية حقة، رحلة "فنية". وبعد قرن من ذلك، في عام ١٤٢٠م ضرب لنا أيضاً المؤرخ أوجين غاران Eugène Garin مثل البرجوازي البندقي الثري، الذي نص في وصيته على أنه ينبغي على أبنائه أن يدرسوا مختارين "المؤلفين والمنطق والفلسفة" قبل أن ينصرفوا إلى مهنة

---

(٩) ماركو بولو، **وصف العالم**، باريس، كتاب الجيب، ١٩٩٨م، ص١٨٩.
Marco Polo, La description du monde, Paris, Le Livre de Poche, 1998, p. 189.

التجارة[١٠]. لقد كان معنى "الليبرالية" حينئذ أن يهب الإنسان نفسه التسامح والحرية للتفكير، انطلاقاً من العالم، وانطلاقاً من البشر ليبدد جهله ويتقدم على طريق الحقيقة والحياة، ليس لكي يجني فائدة مادية فورية. إن النظام "الليبرالي" الذي ننضوي تحت لوائه اليوم لا يقر في الأعم الأغلب إلا النافع، والبحث عن الحياة الهانئة يتلاشى أمام الرغبة في السعادة. هل يمكن لما ندعوه "الثقافة العامة" في الجامعات الإسبانية أن ينشر هذا المثل الأعلى القديم؟ وبذلك يكون التاجر ماركو بولو قد أظهر مقومات رؤية الأرض والعالم رؤية مختلفة، وحدد كيفية التفكير انطلاقاً من الأرض والعالم.

أما الشاعر دانتي Dante، المنفي من فلورانسة، والرحالة، ويكاد يكون معاصر ماركو بولو، وكان مولعاً بالكتب التي تصف العالم فإنه لم يتردد في القرن الرابع عشر الميلادي من أن يؤكد أنه هو نفسه مواطن عالمي في تصريحه التالي:

إن أي شخص بلغ عقله حداً من الانحطاط يجعله يعتقد أن مكان أمته هو أكثر الأمكنة روعة تحت الشمس، ويفضل لغته الأم على كل اللغات الأخرى، ويعتقد بالتالي أنها هي اللغة نفسها التي استخدمها آدم. ولكننا نحن الذين نرى أن العالم وطننا كما هو الماء بالنسبة إلى الأسماك، وعلى الرغم من أننا شربنا من الأرنو[١١] Arno قبل أن نبلغ الفطام، وعلى الرغم من أننا نحب فلورنسة فإننا نرسي دعائم حكمنا على العقل أكثر من المشاعر. وعلى الرغم من أن لذتنا ورغبتنا لا تجد مكاناً أكثر روعة من فلورنسة فإننا عندما نعيد قراءة كتب الشعراء وغيرهم من الكُتّاب، ونجد فيها وصفاً مفصلاً وكونياً للعالم تتردد في دواخلنا أصداء وضعيات مختلفة لأمكنة من العالم ولموقعها بالنسبة إلى كل واحد من القطبين وإلى كل دائرة من دوائر خط الاستواء. إننا، بالتالي، نرى جيداً ونتأكد أن هناك مناطق عديدة ومدناً أكثر نبلاً وأكثر اشتهاء من

---

(١٠) أوجين غاران، تربية الإنسان المعاصر، ١٤٠٠ - ١٦٠٠م، باريس، هاشيت فوليوو ١٩٩٥م.
Eugenio Garin, l'éducation de l'home moderne 1400 - 1600, Paris,Hachette Folio, 1995.

(١١) نهر أرنو (Arno) هو نهر في إقليم توسكانا في إيطاليا. يُعَدّ نهر أرنو ثاني أهم نهر في وسط إيطاليا بعد نهر التيبر. يقع منبعه في جبل فالترونا، وهو جبل من سلسلة جبال الأبينيني. [المترجم]

توسكانيا Toscane وفلورنسة التي أنا من مواطنيها ويعود أصلي إليها، وأن هناك العديد من الشعوب والأمم التي يستخدم كل منها كلاماً هو أكثر حلاوة وفائدة من كلام الإيطاليين[١٢].

وبعد حين، في عصر النهضة نجد ظاهرة تسترعي الانتباه إليها وهي أن فقهاء اللغة المختصين باللاتينية والهلنستية والعبرية والعربية الواعين والفخورين بأنهم ينتمون إلى جمهورية للآداب لا تقتصر على اللاتينية وحدها، ويجوبون أوربا في كل الاتجاهات، هؤلاء، هم الحريصون على الانفصال عن أي نظام خاص ورمزي وجماعي. ويمثل كل من مارسيل فيشين[١٣] Marcile Ficin، وبيك دولا ميراندول، وإراسم[١٤] Erasme، وتوماس مور[١٥] Thomas More، وجوان لويس فيفيس[١٦] Juan Luis Vives أو

---

(١٢) دانتي، في البلاغة العامية، الفصل السادس.

Dante, De l'Eloquence vulgaire, 6e Chapaitre.

(١٣) شاعر وفيلسوف إيطالي، ولد عام ١٤٣٣م وتوفي عام ١٤٩٩م. واحد من أكثر فلاسفة عصره الإنسيين تأثيراً في النهضة الأولى في إيطاليا. كان فلكياً، وأسهم في تجديد الأفلاطونية الجديدة. أهم كتبه: التيولوجيا الأفلاطونية في خلود الأرواح؛ كتب الحياة الثلاثة؛ حاشية على مأدبة أفلاطون. تأثر بمجموعة من الفلاسفة وعلى رأسهم أفلاطون، وأرسطو، وفيثاغورس، وأثر في جماعة أشهرهم بيك دولا ميراندول. [المترجم]

(١٤) ولد عام ١٤٦٦م في روتردام في هولندا، وتوفي عام ١٥٣٦ في بال (سويسرا). أديب ومنطقي وإنساني وتيولوجي هولندي. كان أحد الركائز الأساسية لعصر النهضة، كتب باللاتينية. وأهم كتبه: مديح الجنون، وإنسانيو عصر النهضة. [المترجم]

(١٥) السير توماس مور، كان رجل قانون ومؤرخ وفيلسوف وتيولوجي ورجل سياسة إنجليزي. ولد في لندن ١٤٧٨م وتوفي فيها عام ١٥٣٥م. وهو قديس حسب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. رفض طلاق الملك هنري الثامن من زوجته، كما رفض الاعتراف بالسلطة الدينية التي استأثر بها الملك فأعدم. كان من أصدقاء إراسم المقربين. [المترجم]

(١٦) ولد في فالنسيا (إسبانيا) ١٤٩٢م، وتوفي في بروج (بلجيكا) ١٥٤٠م. يهودي اعتنق الكاثوليكية، كان رجل سلام، تيولوجياً وفيلسوفاً وتربوياً. من تلامذة إراسم. [المترجم]

ليوناردو دافنشي[١٧] Léonard de Vinci أمثلة رائعة على ذلك من بين علماء آخرين. من ذلك أن إيراسم غادر المجمع الكنسي، وقد وجد نفسه في تلك المغادرة، وفي طواف أوروبا. أما توماس مور فإنه كان يحلم بأن يُنتخب حكام أوتوبيا Utopia مدينته المتخيلة، ومات بسبب قناعاته الأخلاقية والسياسية. ومونتيني يقول لنا:

يبدو لي أن الرحلة تمرين نافع، فالروح فيها في حالة تحريض مستمر لملاحظة الأشياء المجهولة والجديدة. وكما قلت غالباً لست أعرف مدرسة أفضل لتكوين الحياة من أن نقدم لها باستمرار التنوع الذي تحمله حيوات أخرى، والفانتازيات والممارسات العملية، ونجعلها تتذوق مثل ذلك التنوع السرمدي لعناصر طبيعتنا[١٨].

[٥٠] إن الاهتمام الذي توليه للعالم ثقافة الإنسيين المسماة "ليبرالية"، بالمعنى الاشتقاقي للمصطلح، التي تزعم أنها تخص بالأهمية نفسها كل مظاهر الحياة. لا يشينه أي شيء من الواقع. وكل ما هو إنساني هو موضوعه، بلا تسلسلية علمية ولا أدبية ولا فنية، وهو بذلك يلحق بالقناعة بمبدأ العمودية في الأرض من السماء عند يان أرتوس – برتران. إن الفضول والحرية لن يعترفا بأي حدود.

يكتب بول فاليري Paul Valéry عن ليوناردو دافنشي فيقول:

كان هناك في إحدى المرات رجل يستطيع أن يرى الاستعراض نفسه أو الموضوع نفسه تارة كما كان قد رآه رسام، وتارة كما كان قد رآه عالم الطبيعة، وثالثة كما كان قد رآه عالم الفيزياء، وفي مرات أخرى كما كان قد رآه شاعر؛ ولم تكن أي واحدة من هذه الرؤى سطحية[١٩].

---

(١٧) ولد عام ١٤٢٥م وتوفي عام ١٥١٩م. من أشهر فناني إيطاليا في عصر النهضة. كانت له مشاركات وأبحاث في علم التشريح والبصريات وعلم الحركة. [المترجم]

(١٨) مونتيني، محاولات، م.س، في الابتذال، ٣، ٩، ٩٧٣ – ٩٧٤.

Montaigne, Essais, ouvr. Cit., De la vanité, III, 9, 973 - 974.

(١٩) بول فاليري، نظرات حول العالم المعاصر، الأعمال الكاملة ٢، باريس، غاليمار، بلياد، ١٩٦٠م.

Paul Valéry, Regard sur le monde actuel, Œvres II, Paris, Gallimard, Pléiade, 1960.

وإذا استوحينا من ملاحظات **بول فاليري** السابقة يكون السؤال أليس على وجه التحديد التشكيك في الخصوصيات هو الذي ينبغي اليوم تشجيعه محاكاة لإنساني عصر النهضة؟ يلاحظ الفيلسوف **ميشيل سيريس** Michel Serres :

عندما تُمحي الحدود، وعندما يصبح الذي يقول "عصفور" في كل صباح يتواصل مع من يقول: Vogel أو bird، أو uccelo أو passajo، هل يمحوها بهذه الشدة لأنه لا يتحدث اللغة نفسها ولأنه لم يتخذ الآلهة نفسها[٢٠]؟

وبذلك تكون المفارقة أن من رضي بأن ينسى ما تعلمه عندما فهم كلمات الآخرين، وعندما تخيل العالم من السماء، أي في العمق، يمكنه أن يدخل ضمن نظام من التأمين، دون أي خلط لا باللغات ولا بالآلهة، كما يشير إلى ذلك إشارة رمزية **ميشيل سيريس**. يظل في الواقع أن العنصرين الأساسيين هما: الأرض، التي ليس لنا أي قيمة خارجها، التي ندين لها بكل شيء، والكائنات البشرية التي تسكنها مع تنظيماتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ويذكرنا العالم ذو النزعة الإنسانية **رابليه** Rabelais في عام ١٥٤٦م باستمرارية العنصرين الأساسيين اللذين ذكرناهما: الأرض والكائنات البشرية وتنظيماتها عبر شخصية **بانورج** Panurge في **الكتاب الثالث من رواية جارجانتوا**[٢١] Gargantua. إنه يقرظ فيها مجتمعاً "ينتقل" من يد إلى أخرى. والتبادل يؤمن عبر الاستدانة التلاحم الاجتماعي. أما الدَّيْن فهو مبدأ أخلاقي حقيقي من مبادئ السلوك، وهو مبدأ استقرار التنظيمات الاجتماعية والسياسية. أما السوق، بوصفه لقاء بين عرض وطلب، دون أن يكون هناك تسلسلية بين البائع والمشتري، وبين الدائن والمدين، فسيكون بذلك، وهو يوصي بالحرية مثلاً أعلى لكل إنسان، القوة المنظمة التي تجعل العالم مسالماً:

---

(٢٠) **ميشيل سيريس، أومينيسانس**، باريس، لوبوميه، ٢٠٠١م.

(٢١) الرواية الثانية للروائي الفرنسي فرانسوا رابليه. تعود طبعتها الأولى إلى عام ١٥٣٤م. كتبها بعد روايته الأولى **بانتاغرويل** التي نشرها عام ١٥٣٢م. [المترجم]

هل أنت مدين على الدوام بالنقود لأحد ما؟ إن هذا الدائن يدعو الله باستمرار أن يمنحك حياة هانئة وطويلة وموفقة خوفاً من أن لا يستطيع استرجاع دينه المترتب عليك؛ يذكرك بالخير دائماً في كل مقام، ويبحث لك على الدوام عن دائن آخر ليسمح لك بالحفر هنا لتسد حفرته بتراب الآخر... ولا أعد نفسي شريفاً، ولا محترماً ولا مخشي الجانب إلا عبر هذه المأثرة التي أملكها، مأثرة تتمثل في صناعة الأشياء وابتداعها من لا شيء، ومن غير مادة أولية، وهذا على الرغم من رأي كل الفلاسفة الذين يقولون: لا شيء يولد من العدم... ليس كل مدين بمدين، ولن يكون الدائنون دائنين لمن أراد.

تشكل الأرض من الآن فصاعداً المثال القائل: إن مصيريْ الإنسان والأرض مرتبطان. وإن التمييز بين الطبيعة والثقافة يتلاشى، لم يعد هناك لا عالية ولا سافلة، ولكن عالم صغير وعالم كبير. والمدين والدائن كلاهما رابح منذ اللحظة التي يبتعدان فيها عن الربا، ذلك الإثم الكبير في الديانات التوحيدية الثلاث. وعن معتقد الثبات[٢٢] الذي رفضه فكر الشرق الأقصى. ألا يرى رابليه في القرن السادس عشر الميلادي الأرض من السماء؟

[٥١] جسِّد وأنت ذو لب رصين نمطاً مثالياً، وصورة لعالم ليس فيه ألبتة دائن ومدين... في تلك اللحظة لن يكون لأي من الأفلاك مسيرة منتظمة. كلها ستكون في غير مسارها... يبقى القمر دموياً ومظلماً: لأي سبب تمنحها الشمس ضوءها؟ ليس هناك ما يجبرها على ذلك. لن تعكس الشمس نورها على الأرض، ولن يكون للأفلاك تأثير إيجابي: ستتوقف الأرض عن أن تقدم لها، بخارها وروائحها المنبعثة التي تغذي النجوم بوصفها وسائل استمراريتها كما قال ذلك هراقليطس Héraclite، وأيده الرواقيون، وسانده شيشرون. لن يكون بين العناصر لا ترميز ولا تفاعل ولا أي تحول: لن يعد أحدها نفسه أسير فضل الآخر لأنه لم يقرضه أي شيء. لن تلد الأرض

---

(٢٢) Fixisme: معتقد يخالف نظرية التطور، ويرى أن الأنواع تبدو اليوم كما كانت عليه عند خلقها. [المترجم]

الماء، ولن يتحول الماء إلى هواء، ولن يلد الهواء النار، والنار لن تدفئ الأرض... ولن يكون من البشر أحد لينقذ الآخر؛ وسيرتفع صراخ الاستغاثة: " العون العون ! النار! الماء! القتل!" ولن يهب للإنقاذ أحد. لماذا؟ لأن أحداً لم يقرض أحداً شيئاً، ولا أحد يدين لأحد بشيء. ولن يزعج أحد أن يحترق الآخر، أن يغرق، أن يفلس، أن يموت. مثلما لم يقرض أحد في الماضي فإنه لن يقرض شيئاً بعد ذلك...

وإذا تخيلنا العالم الآخر الصغير الذي هو الإنسان على شاكلة هذا العالم المزعج، البغيض، الذي لا يقرض شيئاً، فإننا سنجد فوضى رهيبة؛ فالرأس لا يريد أن يقرض عينيه ونظرهما لتوجيه القدمين واليدين. والقدمين لن يتفضلا بحمله. ستتوقف اليدان عن العمل من أجله. سيضيق القلب ذرعاً من إرسال كثير من النبضات في الأعضاء وليقدم لها المساعدة بعدُ. والرئتان لن تخصه قرضاً من أنفاسها. ولن يرسل له الكبد الدم لتأمين تغذيته. ولن ترغب المثانة في أن تكون مدينة للكليتين: لن يكون هناك براز. أما الدماغ الذي يحكم بأن كل هذا لا يسير بإيقاع طبيعي فإنه ينصرف إلى الهذيان، ويمتنع عن إيصال الإحساس إلى الأعصاب، ولا الحركة للأعضاء. وعلى الجملة سترون في هذا العالم المعطل الذي لا يدين بشيء، ولا يقرض شيئاً، ولا يقترض شيئاً، مؤامرة أكثر ضرراً من المؤامرة التي قدمها إيسوب[٢٣] Ésope في حكمه السردية. وسيهلك بدون أدنى شك...

---

(٢٣) الحكيم أيسوب 564 - 620 ق. م. ولد أيسوب عبداً مملوكاً امتلكه اثنان من أهل ساموس وهي جزيرة إغريقية وقد اعتقه أحدهما لما تبين له علمه وذكاؤه. طاف أيسوب البلدان، ثم وفد على ساروس عاصمة ليديا وكان ملكها كريزوس اكبر مناصري العلم ومشجعيه لذلك وجد أيسوب لديه الترحيب والقبول اللازم والتقي في مجلسه سولون والحكماء اليونانيين وقد ندبه الملك في سفارات صعبة ودقيقة وقد لقي حتفه في إحدى هذه السفارات حيث كان الملك قد أرسله إلى دلفي بذهب كثير يوزعه على أهلها وقد اغتاظ أيسوب من جشع أهل البلد فرفض أن يوزع المال عليهم ورده للملك؛ لذا اتهمه أهل البلد بالزندقة وقتلوه. وقد استعمل أيسوب الخرافات لتدعيم مناقشاته اليومية، ولحل النزاعات السياسية أو اليومية وفي إيصال حكمه ومواعظه للناس. [المترجم]

وعلى العكس، جسِّد عالماً مختلفاً، كل فرد فيه يُقرض، ولكل فرد فيه ديون، والجميع فيه مدينون، والجميع فيه مقرضون. آه أي انسجام سيسود بين التحركات المنتظمة للسماوات! ويبدو لي أنني أسمع ذلك بوضوح كما سمعه أفلاطون قديماً. أي تآلف بين العناصر! آه كم الطبيعة ستكتمل في أعماله ومنتجاته! سيريس[٢٤] Cérès مكللة بالقمح! باخوس[٢٥] Bacchus بالنبيذ! وفلور[٢٦] Flore بالزهور! ويومون[٢٧] Pomone بالثمار! وسنرى جونون[٢٨] Junon في مظهرها الرزين رزينة، وحيدة، لطيفة!

أترك نفسي تضيع في هذا التأمل: رؤية السلام، والحب والصداقة والإخلاص والدعة، والموائد والحفلات والفرح والسعادة والذهب والفضة وقائمة النقود والسلاسل والخواتم والبضائع تنتقل من يد إلى أخرى بين البشر. لا محاكم، ولا حروب، ولا خلافات، ولن يكون أحد مرابياً، ولا أحد نهماً، ولا أحد بخيلاً، ولا أحد منطوياً على نفسه. إله حقيقي، ألن يكون هذا هو العصر الذهبي، عصر سيادة زحل؟ هل هو نموذج المناطق الأولمبية، حيث تغادر كل الفضائل مكانها، حيث يسود الإحسان وحده، يوجه، يسيطر، ينتصر؟ الجميع سيكونون طيبين، جميلين، وسيكون كل شيء في مكانه. آه كم هو عالم سعيد! آه يا لشعوب هذا العالم السعيد! آه يا للعالم السعيد ثلاث أو أربع مرات، يبدو لي أنه سيكون كذلك...

جسِّد عالمنا الصغير على هذا النمط فستجد أنه الإنسان المقرض بكل أعضائه، المقترض، المدين، أي في وضعه الطبيعي؛ لأن الطبيعة لم تخلق الإنسان إلا ليدين ويستدين. ولن يكون انسجام السماوات أكبر من انسجام التنظيم الشخصي للإنسان.

---

(٢٤) في الأساطير الإغريقية: إلهة الزراعة. [المترجم]

(٢٥) باخوس (أو ديونيسيوس عند الإغريق)، هو إله الخمرة والكرمة والخصب والرقص والمتعة. [المترجم]

(٢٦) فلور أو فلورا باللغة اللاتينية: واحدة من أقدم الآلهة الحقلية وأكثرها قوة في إيطاليا. ومعادلها الإغريقي: Nymph Chloris. [المترجم]

(٢٧) إله الثمار عند اليونان، وهو حسب أساطيرهم غاية في الجمال. [المترجم]

(٢٨) في الأساطير الرومانية هي ملكة الآلهة وملكة السماء، هي في الوقت نفسه أخت جوبيتر وزوجته. [المترجم]

[٥٢] وبذلك يكون التفكير انطلاقاً من عالم مختلف مع التخلي عن كل فتنة بالوحدة وبالحقيقة، بالنسبة إلى التاجر ماركو بولو كما بالنسبة إلى صاحب النزعة الإنسانية رابليه، يقود إلى فلسفة للعلاقة والترابط. إن توزيع الثروات يحبط النزاعات والأحقاد. والتعارض التقليدي الإغريقي بين الطبيعة والتقنية أو الثقافة لم يعد لها أي معنى لأن الطبيعة تترافق مع تنمية التقنية أو الثقافة. وإنه لمن المرجح أن رابليه يلزم بعض الحذر، ونحن معه في ذلك، بالطبع! - حول إمكانية التحقق السريع لهذا "العالم السعيد"، وحول "تاريخ المستقبل" الخاص به. ولكن مفهوم الانسجام الذي يذكره هنا هو مفهوم مركزي، إستراتيجي؛ ليس هناك قطيعة بين البداية والنهاية، بين الإنسان والطبيعة، بين الحدث والاستدامة.

وهذا أيضاً ما تعبر عنه على طريقتها الفنانة البلجيكية **جوسلين كوستير** Jocelyne Coster عندما تمزج في واحد من أعمالها بالأحمر والأزرق بين بصمة الأرض وبصمة الجلد مما يجعلها تبدو وكأنها تقرأ قراءة سريعة الخطوط المتموجة للإبهام بوصفها شواطئ أو جزراً أو أرصفة من المرجان بالقدر نفسه.

٢- اقتصاد العلاقة، فلسفة التجارة، المنظمة العالمية للتجارة في جنيف في عام ٢٠٠٨م

II. L' économie de la relation, la philosophie du commerce, l'Organisation Mondiale du Commerce à Genéve en 2008

وفي عصر الكتاب الثالث من رواية رابليه عام ١٥٤٣م تقريباً أطلق كوبرنيكوس Copernic الأرض في السموات، أي أنه جعل الشمس في مركز العالم، وفرض إعادة صياغة مسألة طبيعة الإنسان، وطبيعة وضعه، وطبيعة علاقته مع الله. كان وهو يفعل ذلك يفرض إعادة صياغة مسائل العلم، والنظام الاجتماعي وحياة كل واحد منها. وقد كان أولئك الذين تجرؤوا حينئذٍ، حوالي ١٦٠٠م، على أن ينظروا إلى نصه نظرة جادة، ويستخرجوا منه كل الملابسات الفلسفية والاجتماعية والدينية، كانوا، يتمتعون بقدر كبير من الجسارة.

وقد تجرأ الفيلسوف والإنسي جيوردانو برونو[٢٩] Giordano Bruno مقتفياً أثر كوبرنيكوس على أن يفتح على السرمدية عالم القدماء المغلق، وأكد أن السرمدية ليست لا تراجيدية ولا مقلقة. وبحسبه فإن السرمدية الكوبرنيكية تشير إلى حالة إيجابية، وإلى قدوم حرية جديدة، وإلى الاعتراف بالثراء المدهش للواقع، وأخيراً إلى السلطة غير المحدودة للفكر وللفعل الإنسانيين. هناك عالم جديد ينبغي بناؤه. ويحتفل جيوردانو برونو بتحليق الإنسان في الرسالة الاستهلالية للحوار الذي أداره في كتابه: **في السرمدية، الكون والعوالم**[٣٠]، ١٥٨٤م:

الآن وقد خرجت من السجن الضيق الذي احتجزني الخطأ فيه سنوات طويلة أنشر في الهواء جناحيَّ الآمنين، لست أخشى أي عقبة كريستالاً كانت أو زجاجاً، ولكنني أشق السموات و أبني للسرمدية.

إن الإنسان مؤهل للسرمدية إلى حد لا يقل في أهميته عن ارتباطه بكل البشر الآخرين. ويشرح برونو في كتاب صغير كتبه عام ١٥٩٠م، عنوانه: **روابط**[٣١] أن البشر لا يستطيع بعضهم التخلي عن بعض، وأن تلك الروابط ظواهر واقعية، مستقلة عن أي سمو، تُطَوَّر على المستوى العالمي تطوراً تُلْمس آثاره على المستوى المحلي. يُخيل إلينا أن هذا وصف حقيقي للعولمة التي سيكون من محاسنها أنها لا تجعل النضال الإيديولوجي قضيتها، كما هي الحال غالباً اليوم. لنقتبس ما يقوله جيوردانو برونو وهو يسدي بعض النصائح لأولئك الذين يريدون تقريب الآخرين منهم:

يحسن بمن يرغب أن يقرب الآخرين منه في الحياة المدنية أن يسبر تنوع التركيب أو التعقيد، وأن يحكم ويفصل ويقرر بطريقة مختلفة بخصوص الكائنات البطولية، والمخلوقات العادية، وبقول إجمالي الطبيعيون.

---

(٢٩) مفكر **إيطالي** ولد عام ١٥٤٨م وأحرق حياً في روما عام ١٦٠٠م. اعتمد على أعمال كوبرنيكوس في أعماله الفلسفية حول الكون، واستمرت محكمته ثمانية أعوام، وأحرقت كتبه. [المترجم]

(٣٠) عنوانه الإيطالي كما ذكرته المؤلفة: De l'infinito, universo e mondi de 1584. [المترجم]

(٣١) Des liens.

وواقع الأمر أن التحولات المرتبطة بالعولمة، التحولات التي لا تقتصر على الأقاليم [٥٣] أو على المدن فقط، وإنما أيضاً على المناطق، وعلى كل أشكال التكافل على مستويات إقليمية مختلفة، تلك التحولات، لن تكون متجانسة. إنها تستطيع، وينبغي عليها أن تفسح المجال لظهور إستراتيجيات مختلفة للإغراء أو للاستهواء أو لبث الحيوية.

إن ما هو مترابط عبر قدراته وأجزائه مترابط تمام الترابط. إذنْ ينبغي على من يقوم بالربط أن يعرف عدد القدرات والأجزاء لكي يستطيع تحمل المسؤولية القانونية للعديد مما بقي، بل للجميع إذا كان يريد الربط ربطاً متقناً. ينبغي أن لا تكون عنده الأغذية ولا إغراءات الروح والعقل، المختلفة بحسب قواها المتنوعة، موضع شك، أو لا يمكن الوصول إليها. إن السبب الأول الذي يجعل أن كل شيء يمكن أن تتوافر فيه ميزة الترابط هو أن لديه شهية المحافظة على نفسه في كونه الحالي من جهة، وشهية أن يكتمل اكتمالاً تاماً حسب ذاته وفي ذاته من جهة أخرى... بمقدار ما يجد فيمن يقوم بالربط شيئاً من نفسه يكون الشيء مرتبطاً ارتباطاً أفضل، أو لأن للرابط تأثيراً عليه عبر شيء من ذاته...

إن المترابطين في اقتصاد العلاقة هذا يتملكون عنصر الجذب الخاص بهم عبْر خلق أمكنتهم الخاصة لعمليات الربط، محدثين قطيعة مع فضاءاتهم الداخلية التي يقدرون أن المحافظة على أنفسهم وبلوغهم حالة التمام فيها صعبة، بل مستحيلة؛ إن القبول بعنصر الجذب هو علامة سيادتهم وحريتهم؛ الفرد هو مصدر التزامه الخاص. إذا نقلنا على سبيل المثال هذه الإشكالية إلى العصر الحاضر فإن ذلك الحي من مدينة عملاقة يشهد تحولاً عندما تختار بعض الشركات المهمة للعولمة أن تكون مقراتها فيه، مستبدلة بذلك مركز جذب بمركز جذب آخر، وخيالاً يمكن أن يكون خيال الشبكة، خيال الشمول، خيال الموجود بالقوة، بخيال آخر مساوٍ لسابقه في الشمول، ولكنه قديم، متعلق بتاريخ محلي، بثقافة محلية مهيأة لأن تفرض نفسها بطريقة غير منتظرة. يستطيع الرابطون أن يصبحوا هم المترابطين في لحظة لم يتوقعوها.

وبذلك، لم يعد شيء يستطيع، وبفضل المفكرين من ذوي النزعة الإنسانية في عصر الحداثة الأول، أن يفلت من التساؤل. عالم جديد ينبغي على الإنسان بناؤه من أجل الإنسان. وينبغي الابتهاج بالحرية وبالفعالية التي تحملها أي معرفة تم بناؤها بدقة تامة. لم تكن الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السادس عشر الميلادي لتقبل حتماً بملاحظات جيوردانو برونو الذي قضى نحبه في المحرقة الموجودة في كامبو دي فيوري Campo di Fiori في روما، في السابع عشر من فبراير ١٦٠٠م لأنه رفض الخضوع لمعتقداتها. ومع ذلك فإنه كان على الدوام يشير إلى حريات جديدة، إلى حقوق جديدة، وواجبات جديدة للفكر والفعل. لقد انفتح على مصراعيه باب العقلانية. والعلم من الآن فصاعداً تنظيم، شبكات من الرجال والنساء يتقاسمون اجتماعياً ما انتهوا إليه من نتائج، دين للبعض في رقاب الآخرين.

إن التفكير الفلسفي والإنساني لدى جيوردانوا برونو حول الروابط وجدت صدى غريباً في الكتاب الذي كتبه لويس توركيت دو مايرن Louis Turquet de Mayerne في العصر نفسه تقريباً، ولويس هذا بروتستانتي، كان طبيباً وكيميائياً يقيم في لندن. ما يراه هذا الكاتب هو أن كل شيء تجارة و"عقد"، وكل شيء في العالم "سلعة":

ليس هناك ما هو أكثر طبيعية للبشر من أن يبرم بعضهم عقوداً مع بعض، ومن أن يتبادل بعضهم السلع مع بعض، ومن أن يتجر بعضهم إلى بعض. وليس بالإمكان أن نرى ثلاثة أشخاص يتجاذبون أطراف الحديث إبان ساعتين إلا نراهم اتفقوا على بيع ما، أو على مقايضة ما، أو على قرض ما، أو على أي نوع آخر من الإتجار. والأطفال، منذ أن ينطلق لسانهم، يخالط ألعابهم تبادل بعض السلع، وهم في المدرسة ليس لهم إلا مهنة التبادل، وإعادة التبادل والإتجار فيما بينهم بما يحملونه من منازلهم...

إن الأمير وتابعيه، والسيد مع خدمه، والصديق مع صديقه، والقائد مع جنوده، والزوج مع زوجته، والنساء مع بعضهن: بكلمة واحدة كل الناس يجرون وراء الأسواق ويغضبون لها. جملة القول: إن كل شيء يدخل في التجارة ويمر عبر الإتجار [٥٤] في كل زمان ومكان: ليس فقط ما تنتجه الطبيعة، كما هي حال ثمار

الأرض، الحيوانات ومنتجاتها، المعادن وما شابهها من الأشياء؛ ولكن أيضاً السلع التي تصنعها يداه، التي هي من عمل الآخرين: الذين يبيعون الكلام، والذين يتجرون بجلود البشر ودمائهم: بل إن هناك تجاراً مهرة تصل مهارتهم حداً يستطيعون معه حمل الأشخاص على بيع أنفسهم. وقد رأينا كثيراً ممن خططوا للإتجار بالنفوس. على الجملة إن كل ما يصنعه الإنسان بيده ويجول في خاطره ليس إلا سلعة[٣٢].

إن الحرص على الجوانب المادية للتبادل والفائدة الذي يركز عليه المثال السابق أكثر من تركيزه على الجوانب غير المادية كالثقة والعيش معاً لا يمكن إلا أن يضيق أفق المستقبل. إننا هنا في نظام علم يقتصر على الحقل التقني الخالص، ضمن برنامج عام هو برنامج رجل السوق، محمول التجارة وحاملها، من يشتري ويبيع، من يشتري نفسه ويبيعها. كيف يمكن لمستلزمات اقتصادية من هذا النمط للمجتمع التجاري للبشر أن تسمح بانبلاج عوالم جديدة، مفاهيم جديدة، تقنيات جديدة للإنسان بوساطة الإنسان؟ كيف يمكن للفرد أن يشعر أنه محترم بكليته، كيف له أن يشعر أنه مرتبط بالعالم الذي يحيط به إذا كان يرى في كل شيء سلعة، وإذا كان هو نفسه، إرادياً أو غير إرادي سلعة؟ كيف يجد الإنسان نفسه في هذا التقسيم المادي والروحي لذاته نفسها، المتمثلة في معرفة ثمن كل شيء دون أن يهتم بمعرفة قيمة أي شيء؟ ما الشأن في ديمقراطية سوق تصطاد فيه المواهب بعضها بعضاً، تُشترى وتباع لمن يدفع أكثر بإشراف من يسمون "صيادو الرؤوس"، الذين تكون آداب المهنة لديه في الأعم الأغلب نسبية جداً؟

وبعد حين، في النصف الأول من القرن الثامن عشر أعلن القاضي والفيلسوف مونتسكيو Montesquieu الذي كان يعتقد أن التجارة في ديمقراطية العقل والسوق تلطف الأخلاق، وتقود إلى السلام والحرية السياسية، وتسهم في الأمن ضد كل العقبات التي

---

(٣٢) لويس دو مايرن، بحث في المبادلات التجارية والمبيعات، أو العقود التي تجري في الأشياء المنقولة، باريس، جاك شوفيه، ١٥٩٩، ص٨ - ٩.

Louis de Mayerne, Traicté des négoces et traffiques, ou contracts qui se font en choses meubles, Paris, Jacques Chovet, 1599, p. 8 - 9.

تضعها المصالح والسلطات. لذلك نجده يبني تفسيره للتاريخ الأوروبي حول هذه الملاحظة في فصل من فصول كتابه الشهير في روح القوانين De l'esprit des lois :

إن التجارة تشفي من الأحكام المسبقة الهدامة ؛ ويكاد يكون قاعدة عامة قولنا : إن وجود الأخلاق اللطيفة في مكان ما يدل على وجود التجارة فيه... لقد نتج عن التجارة أن معرفة أخلاق الأمم كلها أصبحت شائعة في كل مكان : وأصبح الناس يقارنون بعضها ببعض، ونتج عن ذلك خير عميم. إن النتيجة الطبيعية للتجارة هي أنها توصل إلى السلام. إن الأمتين اللتين تتجران معاً تجعل كل منهما الأخرى مستقلة : إذا كانت مصلحة إحداهما في الشراء، فإن مصلحة الأخرى في البيع ؛ وإن كل الاتحادات قائمة على الحاجات المتبادلة(٣٣).

إن هذا يعني بعبارة أخرى أكثر معاصرة أن عولمة المبادلات، بوصفها نظاماً للروابط ترسي أسسه التجارة، يمكن أن تفضي إلى عجز الأنظمة الدكتاتورية وإلى إبطال العنف. ويأتي في السياق نفسهما يقوله بنجامان كونستان Benjamin Constan، أحد تلامذة مونتسكيو في القرن التاسع عشر، فهو يرى أن الانتقال من الحرب إلى التجارة يتفق مع جوهر طبيعة الإنسان. فتاريخ الإنسانية متضمن في الطبيعة الاكتسابية للإنسان.

إن الحرب والتجارة ليسا إلا وسيلتين مختلفتين للوصول إلى الهدف نفسه، وهو تملك ما نرغب فيه. والتجارة محاولة للحصول بالتراضي على ما لم نكن نأمل الحصول عليه بالعنف(٣٤).

[٥٥] واقع الأمر أن كونستان يُكسب الحرب صفة تجارية دون أن يأخذ في الحسبان مفهومي الشرف والمجد. وهو يحرض بدرجة أقل على التجارة التي هي وسيلة

---

(٣٣) شارل – لويس دو سيغوندا، البارون دو مونتسكيو، في روح القوانين، ٢٠، ٢.

Charles - Louis de Segondat, baron de Montesquio, De l'esprit des lois, XX, 2.

(٣٤) بنجامان كونستان، في عقلية الغزو و الربا، نشر مارسيل غوشيه، باريس، هاشيت، ١٩٨٠م، القسم الأول، الفصل ٢، ص١١٨.

Benjamin Constan, De l'etsprit de conquête et de l'usurpation, éd. Marcel Gauchet, Paris, Hachette, 1980, 1er partie, chap. 2, p. 118.

عقلانية، بحسب ما يقول، للحصول على ما نرغب فيه، وهي في الوقت نفسه وسيلة لولوج وعي كامل للذات بوصفها كائناً يرغب في التملك، ومفطوراً عليه بطبعه. وبذلك يمكن للتجارة أن تكون أحد المحركات الأساسية للتنمية التاريخية، بوصفها تستجيب للشرط الإنساني. وإن النشاط التجاري عندما يربط على الدوام البشر بعضهم ببعض، ويخدم إرادات حرة يسمح بالتخلص من ثنائية الحرب والسلام.

هل ستصبح التجارة من الآن فصاعداً القوة المنظمة للعالم؟، أو بعبارة أخرى هل يمكن للسوق أن يكون القوة المنظمة لحياة البشر على الأرض، هل يمكن أن يكون مصدر روابط بين البشر؟ ولما كان النشاط التجاري لا يحتاج إلى أرض خاصة به، ولأنها تربط البشر جميعهم بعضاً ببعض، فالعالم كله سيصبح حينئذٍ أرضاً لرجال التجارة. وإن الشأن هنا هو ما رأيناه في الفصل الأول من أن أكثر الأحداث المعاصرة إشكالية تميل إلى إلغاء التعارض التقليدي بين الطبيعة والثقافة لتشير إلى وجود تطور تدريجي طبيعي وحيوي للأساسيات الثلاثة التي هي الأرض والبشر والتنظيمات الثقافية، الاجتماعية والسياسية، كما أن السوق يميل إن لم يكن إلى التشكيك فهو على الأقل يخفف كل التخفيف من التمييزات التقليدية بين عولمي ومحلي، وبين داخلي وخارجي، وبين الحرب والسلام. إن مفهومي الحدود والعدو يتلاشيان، وسيصبح من الثابت، من الآن فصاعداً أن القوى التجارية تجني مورد عيشها من الكون كله عندما تتلاشى سلطة التلاحم، وتتلاشى أيضاً سلطة الالتزام تجاه المجتمعات التي تنتمي إليها تلك القوى. ولكن ألن يكون لنزع الصفة الإقليمية[٣٥] عن الثروات نتائج مثل تدهور الأخلاق المدنية والعقل المدني واستمرارية بعض المجموعات في احتكار الثروات؟

---

(٣٥) Déterritorialisation: مصطلح افترعه جيل دولوز و فيلكس غاتاري في كتابهما (أنتي - أوديب= L'anti - Œdipe= ضد أوديب) عام ١٩٧٢م، واستخدم في مجالات كثيرة. والمؤلفة هنا تستخدمه بالمعنى الذي اكتسبه في الجغرافيا الثقافية، ويعني قطع رابط الانتماء بين مجتمع وإقليم، وقد سميته نزع الصفة الإقليمية. [المترجم]

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن ذلك التطور التدريجي الطبيعي والحيوي للأرض، وللبشر وللتنظيمات البشرية توطد أراضي كثيرة تظل على الرغم أو بفضل الروابط بينها متنوعة أو تتوق إلى التنوع، بل إلى الاختلاف. العالم ليس مسطحاً ولن يكون كذلك ألبتة. يقوم أي اقتصاد للعلاقة، وأي فلسفة للتجارة على مسار باطني من التعمق، والتحول في توضيح المبادئ والتصورات. لا يستطيع أي شيء البتة أن يفلت من المساءلة، ولا من ذلك العمل الإنساني الذي يتحقق في رحاب المقتضيات الفكرية، وهو عمل أفقه الحقيقة بعيداً عن الغايات التجارية وحدها.

إن كل هذه الإشكاليات التي أثرت عندما تركزت و تعمقت تأثيراً حاسماً في المباحثات المتعددة الأطراف التي أشرفت عليها **منظمة التجارة العالمية**، وبدأت عام ٢٠٠١م في **الدوحة**، في **قطر**، وانتهت أعمالها بالإخفاق في **جنيف** في التاسع والعشرين من يوليو"تموز" ٢٠٠٨م. كان هدف **منظمة التجارة العالمية** (OMC) منذ إنشائها عام ١٩٩٥م تنظيم التجارة العالمية بتكييف العرض مع الطلب العالمي، ووقف أو تأطير نزعة الحمائية التجارية والتحركات العشوائية لرؤوس الأموال، الناتجة عن عدم التوازن في التبادلات وتوازن المدفوعات، بأن تطور آليات حل النزاعات لتسمح بانفتاح تدرجي أفضل للمبادلات التجارية. إن منظمة التجارة العالمية تود أن تكون جوهرياً فضاء للجدل والحوار، مكاناً تذهب إليه حكومات البلاد الأعضاء لمحاولة حل المشكلات التجارية الموجودة بينها، مكاناً يمكن للسلام العالمي أن يستتب عبر تحرير المبادلات التجارية. وبذلك أطلقت **منظمة التجارة العالمية** في نهاية عام ٢٠٠١م، في **الدوحة**، في سياق كان فيه العالم ما يزال تحت وطأة الهجوم المأساوي على برجيْ مركز التجارة العالمي في **نيويورك** في ٢٠٠١/٩/١١م، أطلقت، دورة من المحادثات التجارية المتعددة الأطراف كان ينبغي أن تسمح بتحرير المبادلات التجارية، بما في ذلك في المجال الزراعي، وبالمساعدة على تنمية أكثر الاقتصادات ضعفاً. بيد أن الذي حدث في **جنيف** [٥٦] عام ٢٠٠٨م في مقر **منظمة التجارة العالمية** هو أن إجراءات التحرير التي سبقت الموافقة عليها، وإن بتردد من **الولايات المتحدة الأمريكية** و**الاتحاد**

الأوروبي، وهي إجراءات كانت تشكل سابقة في المجال الزراعي، ولا يستهان بها فيما يخص المنتجات غير الزراعية، هذه الإجراءات، ألغيت في نهاية المطاف بسبب الخلافات المستحكمة حول الملف الزراعي بين **الولايات المتحدة الأمريكية** و**الهند** التي لقيت دعماً من **الصين**. أما نص التسوية الذي قدمه **باسكال لامي** Pascal Lamy المدير العام **للمنظمة العالمية للتجارة**، وهو نص كان يبدو أنه يمكن أن يحصل إجماع عليه، فقد كان مصيره الرفض هو الآخر. وقد بدا بجلاء أن **الولايات المتحدة الأمريكية** و**الاتحاد الأوروبي** لم يعودا قادرين على إملاء نتائج المحادثات على منظمة يبلغ عدد أعضائها ١٥٣ بلداً عضواً من كل القارات، وتتخذ قراراتها بالإجماع، وبدا أن إصلاح المنظمة أصبح أمراً ضرورياً:

إن البلاد النامية لم تعد متلاحمة كما كانت في الماضي، كما اتضح ذلك لممثلة مصر في جنيف، سميحة فوزي. لقد أصبحت الخلافات بينها عميقة والفوارق شاسعة. كل بلد ينظر إلى مصلحته الوطنية وليس إلى مصلحة الجماعة.

وقد كانت الأرض، العامل الرئيسي في الإنتاج، الموضوع المركزي في مناقشات جنيف، تلك الأرض التي هي بعيدة عن أن تكون مصدراً لا ينضب، وخصوصاً مع الامتداد العمراني الضخم في بلاد مثل **الهند** أو **الصين**. وقد وصلت مخزونات الحبوب بسبب الكوارث المناخية الحديثة إلى أكثر مستوياتها انخفاضاً في الخمس والعشرين سنة الأخيرة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك ارتفاع في الاستهلاك الغذائي في البلاد النامية، يزداد شيئاً فشيئاً كلما تطورت. وهناك أيضاً ارتفاع في تكاليف الإنتاج الزراعي، وهي تكاليف مرتبطة بارتفاع أسعار الطاقة. والتنافس مع الوقود الحيوي[٣٦] هو على أشده، وخصوصاً في السوق الأمريكية.

---

(٣٦) الوقود الحيوي= biocarburants الوقود الحيوي (أو الوقود الزراعي) بالمعنى الدقيق للكلمة هو الوقود السائل الذي ينتج من المحاصيل الزراعية، إذ يسعى الداعون إلى طاقة بديلة إلى إنتاج النفط أو الكحول من تخمير السكريات أو تحلل النشا. كما أن بعض أنواع الوقود الحيوي (الأوسع) تنتج الوقود الغازي من الكتلة النباتية أو الحيوانية (الهيدروجين أو الميثان) والوقود الصلب مثل الفحم. [المترجم]

ولم تفت باسكال لامي الإشارة إلى الأهمية الكبيرة للزراعة في قوله:

هناك احتياط ضخم من الإنتاجية في صيغ الإنتاج الزراعي، السماد، المكننة، طرق السقي، الكائنات الحية المعدلة وراثياً (OGM)، البنى التحتية مثل الطرق، الموانئ، قوافل النقل المبرد. إن للزراعة بعض الأولوية[٣٧].

لقد بدا أن مصالح البلاد التي اجتمعت في جنيف أكثر تعقيداً من أي وقت مضى في هذا السياق الصعب الذي يتسم بتوترات اجتماعية، وبـ"ثورة جوع" فعلية دفعت الحكومات إلى اتخاذ تدابير مثل تقليص الصادرات: فالمصالح الزراعية للهند ليست هي المصالح الزراعية للبرازيل، ويخشى عدد من البلاد النامية أن تكون الصين هي أول المستفيدين من الانخفاض العام في التسعيرات الصناعة، وتقلق البلدان الإفريقية من الضرر الذي لا يمكن تفاديه، الذي يلحق بشروط الدخول التفضيلية التي تتمتع بها منتجاتها في أسواق الدول المتطورة، وخصوصاً الاتحاد الأوروبي. أما الأوروبيون فإنهم يريدون التأكد من أن تنازلاتهم في مجال فتح أسواقهم الزراعية ستقابل بتنازلات معادلة في الجانب الآخر من الأطلسي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى اتحدت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي ليكون لها وصول أفضل إلى المنتجات الصناعية للبلاد الكبرى البارزة، القوى الصاعدة في التجارة العالمية، مثل الصين والهند والبرازيل. في حين أن ما سُمِّي "جولة الدوحة للتنمية" لزم أن يكون "بلا مقابل" للبلدان الأكثر فقراً.

والحال أنه لا الهند التي كان تمثيلها في جولة الدوحة في أدنى الحدود، ولا الصين التي كان وضعها وضع البلد المنضم حديثاً إلى منظمة التجارة العالمية لم يرضيا بالتخلي عن مفهوم "الحماية". وقد بدا للدول المتقدمة أن نزوع هاتين الدولتين إلى أن تعاملا معاملة البلدان النامية أمرٌ غير مسوغ. تسمح آلية الحماية التي تعثرت المفاوضات

---

(٣٧) مقابلة جرت في ١٤ أبريل "نيسان" ٢٠٠٨م، أجراها فيليب رييس، ميديابار.
Entretien du 14 avril 2008, par Philippe Riès, Mediapart.

عنده في نهاية الأمر لبلد ما بأن يطبق تسعيرات استثنائية للمنتجات الزراعية مقابل ارتفاع كبير في الواردات، أو تخفيضاً للأسعار لحماية منتجيها. لقد كانت دلهي التي أكدت أنها تتحدث باسم مئة بلد تأمل أن تكون عتبة الانطلاق في مستوى منخفض لحماية الأسواق الزراعية في البلدان النامية، ولكن واشنطن، مدعومة من [٥٧] البلدان المصدرة، وعلى وجه الخصوص الأمريكية اللاتينية عارضت ذلك معتبرة أنه يمكن للآلية في هذه الحالة أن تصبح أداة حماية للتجارة. ورفضت الصين خفض الرسوم الجمركية التي تتقاضاها على الأرز والقطن والسكر لحماية إنتاجها من تلك المواد. وقد صرح أحد الدبلوماسيين الهنود قائلاً:

لقد رفضت الولايات المتحدة أن تتنازل قيد أنملة في موضوع آلية الحماية. وتلك مسألة مصيرية بالنسبة إلينا.

ورأى آخرون أن صلابة واشنطن في هذه المسألة أدت إلى تعطل المفاوضات التي كان من المفترض أن تستمر حول الدعم الأمريكي للقطن.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية لتسمح لنفسها بالتراجع في خصوص القطن ولم تكن تريد أي نقاش حول الموضوع. وقد كانت تعلم وهي تتصلب في مسألة آلية الحماية أن الهند لن تتراجع عن موقفها، وستتحمل مسؤولية فشل المفاوضات كما أكد ذلك دبلوماسي من أحد البلاد الآسيوية فضل عدم ذكر اسمه. بل إن الإجماع لم يكن موجوداً حتى داخل الاتحاد الأوروبي نفسه، إذ لم تتردد فرنسا التي تبعها عدد من البلدان في الاعتراض على عدد من مواقف الاتحاد الأوروبي. وفي نهاية الأمر كانت الغايات الإقليمية، بل الوطنية، والتجارية وراء فشل المفاوضات. لقد أبدى مسئولو منظمة التجارة العالمية إرادة لتحقيق بعض الوفر في الثروات، بهدف توزيع أفضل وأكثر عدلاً، وتنمية مستدامة للبشرية كلها، ولكن هذه الإرادة تراجعت أمام اعتبارات سياسية و اتحادية على المدى القريب والبعيد. إن مما لا شك فيه أن مسئولي منظمة التجارة العالمية لم يكن لهم معرفة كافية بكيفية التفكير والمبادرة انطلاقاً من

عالم مختلف بالتخلي عن أي إغراء بالوحدة والحقيقة. إن الجملة الأولى من تقرير **غرو هارلم برونتلاند** Gro Harlem Brundtland الصادر في عام ١٩٨٧م - الأرض واحدة، والعالم ليس كذلك تأكدت صحتها اليوم أكثر من أي وقت مضى، فقد صرح المفوض الأوروبي للتجارة **بيتر ماندلسون** Peter Mandelson :

لقد أضعنا فرصة إيجاد أول عقد عالمي لتصحيح مسار النظام العالمي. إنها خطوة إلى الوراء في طريق إيجاد نظام تجارة دولي أكبر من خسارة الفرص التجارية... وسيشعر بالنتائج بطريقة غير ملائمة أولئك الذين هم أكثر عرضة من غيرهم للتأثر بذلك في الاقتصاد العالمي.

إن إخفاق **منظمة التجارة العالمية** في التوصل إلى تحرير المبادلات التجارية بسبب المسائل الزراعية، "باسم حقوق الأرض" إذا أردنا استخدام واحدة من عبارات مناهضة العولمة[٣٨]، وهو أمر أرضى إرضاء تاماً كل الجمعيات الفلاحية في العالم، ذلك الإخفاق يظهر أن تجارة خيرات الأرض هي في عام ٢٠٠٨م، وفي سياق أزمة عامة، هي على الدوام عامل رئيسي من عوامل زرع الأحقاد، والتصلب والحروب. إنها عامل يمكن أن نصفه بأنه عامل "لا مفر منه" للمواجهات بين القوى الإقليمية والوطنية في العالم، ضمن منظور سياسات هي في الأعم الأغلب سياسات على المدى القريب في إدارة الندرة والعوز، في حين أن المقصود هو مستقبل العالم ومستقبل الأخلاق، كما هو الشأن في الرواية الرائعة والمتشائمة للروائي **المكسيكي خورجي فولبي** Jorge Volpi **الأرض لن تكون أبداً**[٣٩] التي صدرت عام ٢٠٠٧م، وهي تتحدث بدقة عن كل أشكال الأنانية التي تفسد الأرض. هناك اليوم أكثر من أي وقت

---

(٣٨) altermodialiste= المناهضة للعولمة: هي حركة اجتماعية، نشأت لمواجهة منطق العولمة الليبرالية الجامحة في مطالبها، وتشدد على قيم مثل الديمقراطية، والعدالة الاقتصادية، وحماية البيئة، وحقوق الإنسان لتمكن لعولمة التضامن. [المترجم]

(٣٩) No sera la tierra.

مضى حاجة ماسة لتفكير أكثر سمواً، على المستوى الدولي، ولتجوال نابه ومتوازن للأرض. ويؤكد برونداتلون في عام ٢٠٠٢م أنه ينبغي أن يقرَّ في أذهاننا أن لكل واحد منا سهماً في أي نظام عولمي.

وهذا ما يعرضه لنا الفنان الإسرائيلي مايكل دروكس Michael Drucks الذي يسبر مفهوم الحدود من أجل أن يدحضه دحضاً جيداً، عندما يرسم تضاريس وجهه في مشروعه "جغرافيا مرنة"(٤٠) فيجعل عينيه الخط الفاصل بين الأراضي المحتلة والأراضي غير المحتلة.

[٥٨] ٣- وظائف سيادية، بين المادي وغير المادي

III. Fonctions souveraines, entre matériel et immatérial

إن مسالك طواف الأرض، والتوق إلى تحرير مضبوط كل الضبط للمبادلات التجارية، وإرساء أسس منظمات وتقنيات يود الناس أن تزداد فاعليتها على الدوام، وإمكانية الوصول إلى المعارف، كل ذلك سوغ في أزمنة مختلفة من التاريخ تأملات وخطابات جديدة حول المؤسسات السياسية وممارسة السلطة. والمسألة الرئيسة والمتواترة التي تطرح نفسها هي التالية: اليوم، في سياق العولمة، وفي سياق أزمة لم يسبق لها مثيل مالية، وزراعية، وبترولية، وبيئة، أزمة ينبغي مواجهتها؛ ما المكان الذي تحتله السلطة السيادية في هذه الأزمة، وما الوظائف السيادية، وكيف تمارس السيادة في عالم مأزوم يسيطر عليه النشاط التجاري، ونشاط السوق؟

---

(٤٠) Géographie flexible. ومايكل دروكس ولد في القدس في عام ١٩٤٠م ونشأ في تل أبيب حيث انخرط في مجال الفنون. وجاء للمرة الأولى إلى أوروبا عام ١٩٧٠م، واستقر في انكلترا. طور دروكس أسلوبه في الجغرافيا المرنة التي تقوم على توفير لغة ترميز بصرية من العلامات المفهومة في جميع أنحاء العالم. وما تشير إليه المؤلفة هو لوحته المسماة "أرض دروكس Druksland"، ويقول الفنان إنه كان مشغولاً بمصطلح الحدود أو التخوم، وآثارها الاجتماعية والسياسية. [المترجم]

لنذكر بادئ ذي بدء ببعض الوقائع التي يمكن أن ترتسم في أفق تأملنا. عندما تغلغلت مبادئ الفردية والحرية الموروثة عن العالمين الإغريقي واللاتيني في أوروبا المدن التي كانت تنحسر فيها شيئاً فشيئاً السلطة الدينية عن الاقتصاد والسياسة، أصبح هناك طبقة جديدة من الحكام مؤلفة من التجار وأصحاب رؤوس الأموال تسعى إلى أن تفرض نفسها. وإن واحداً من أول الرسوم الشخصية (البورتريه) في تاريخ الرسم المتعلق بالحياة الاقتصادية وحياة التجارة رسمه **كانتان ميتسيس**[٤١] Quentin Metsys في مدينة **أنفير** Anvers عام ١٥١٤م. وكان الرسم يمثل مديناً وزوجته، يقدمهما الفنان وهما يتفحصان باهتمام كبير قطعة من النقود يمسكها الرجل بين أصابعه، في تلك الأثناء كانت النقود كانت منذ زمن اللغة الوحيدة للتجار. إن هذه الطبقة المبدعة كانت منذ ذلك الزمن تتميز بذوقها الذي يميل إلى الجدة والاكتشافات؛ كانت مسؤولة عن تحديد الأسعار، وعن مراكمة الفوائد، وتتحكم بالرواتب، وتمول الحروب والاكتشافات في أنحاء العالم. إن ذلك البورتريه الذي يمثل رجلاً وامرأة في وسط النقود الذهبية والفضية التي يزنها الرجل بدقة، ناهيك عن كتاب الصلوات الذي توقفت المرأة عن قراءته لتنظر إلى النقود، وإلى أشياء أخرى تشبه اللآلئ، وكريات من الكريستال، وناقوساً صغيراً ومرآة، يدخل ضمن منطق تواصل سريع، منطق معلومات اقتصادية وفنية، معلومات ثقافية وحرية. إن ملابسهما المريحة، وكتاب التعبد، والنافذة التي تبدو في المرآة مفتوحة تطل على منظر يضم شجرة، ومنزلاً وسماء، وبالطبع النقود وطاولة الصرافة، كل ذلك يتناغم ليظهر مدى انتشار السلعة والإستراتيجية المستخدمة للاحتفاظ بالسيطرة عليها. وآية ذلك أن **أنفير** كانت في بداية القرن السادس عشر هي أول مركز مالي في أوروبا، تراقب العملات، وتدير الأسواق المالية وتوظفها لخدمتها. و**أنفير** كانت أيضاً أول مستخدم لاختراع تقني رئيس جاء من

---

(٤١) رسام **فلاماندي**، ولد في **لوفان** (بلجيكا حالياً) (١٤٦٦ - ١٥٣٠م). وتسمى لوحته: المدين وامرأته Le Prêteur et sa femme (1514).

الصين ؛ إنه الحروف المتحركة للمطبعة. إن هذا الاختراع الذي كان في بداية أمره مخصصاً للشؤون الدينية تملكه بعد ذلك عالم الدنيا مما ساعد في ارتفاع سرعة نقل المعطيات ارتفاعاً كبيراً. وبعد ثلاث سنوات جعل لوثر Luther أتباعه يقرؤون الكتاب المقدس بلغتهم المحلية. وكانت أنفير في نهاية القرن تكسب الأموال من طبعات الكتاب المقدس الكاثوليكي. وستصبح بعد قليل تقنية التواصل الجديدة هذه، القادمة من مكان آخر، عدو السلطات القائمة باسم حرية التعبير، وباسم ارتفاع نسبة الفردية، وباسم العقل، ونشر النزعة الإنسانية. وبذلك استدرجت إمبريالية أنفير إلى التدهور الذي حل بإسبانيا التي كانت في الوقت نفسه تفرض شكلاً واحداً في الفكر وفي المعتقد، واتضح أنها عاجزة عن إدارة الفضة والذهب المتدفقين من أمريكا، وكانت الديون تتراكم عليها في حين أن النقود تتفتت. إن التمثيل الذي قدمه كانتان ميتسيس للصيرفي وزوجته، وهو يعبر عن القدرة على القياس والتأسيس والتخطيط، يجد بذلك إحراجه[٤٢] aporie، فهو بلا نقل وبلا تجديد. فما فائدة امتلاك وسائل التقنية والقوة والعلاقة إذا كانت القدرة الجماعية على امتلاك القوة وتأمين العلاقة معدومة؟

لقد ظهر في تلك الحقبة من التاريخ أن السوق بحاجة إلى دولة قوية لفرض حق الملكية والدفاع عنه. وهذا ما فهمه الإنسيون الذين كانوا يهتمون بالرابط [٥٩] بين القوى السيادية والحياة الاقتصادية. وفي فلورنسة حرص نيكولا ميكافيلي الذي كتب كتاب الأمير الذي يعالج موضوع ممارسة السلطة في ظروف صعبة على التركيز على أن الحاكم ينبغي أن يشجع شركات مواطنيه بأن يوفر لها الحرية والسلام من جهة، ويتعزيز انتماءاتها ومعتقداتها الخاصة وتأكيدها من جهة أخرى. إن الأفراد عندما يتكون لديهم إحساس بانتماءاتهم المتنوعة وولائهم للدولة من جانب، ولجمعية مهنية أو دينية من جانب آخر يحسون بقدراتهم الخاصة، ويطورونها بحرية وسلام في ممارسة هذه المهنة أو تلك.

---

(٤٢) مصطلح فلسفي، سبق بصيغة الجمع في الصفحة ٣٠ من النص الأصلي، وشرحنا المقصود به هناك. [المترجم]

ينبغي على الأمير أن يشجع مواطنيه على ممارسة مهنهم بسلام سواء كان ذلك العمل تجارة، أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس؛ وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً من المصادرة، أو أن يحجم بعضهم الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب؛ وينبغي أن مكافأة كل من يقوم بمثل هذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة أو الولاية بأي طريقة. وينبغي عليه – ناهيك عما سبق – أن يلهي شعبه بالمهرجانات والمعارض في المواسم السنوية المختلفة. لأن أي مدينة مقسمة إلى طوائف عمالية أو من طبقات اجتماعية، وينبغي أن يأخذ الأمير في الحسبان هذه الطوائف والفئات، وأن يشارك من حين لآخر في اجتماعاتها، وأن في نظرهم مثالاً لعظيم الكرم والإنسانية، محافظاً مع ذلك، وعلى الدوام بحزم، على هيبته لأنها الأمر الذي لا ينبغي أن يغيب في أي شأن من الشؤون[٤٣].

وبعد حين، في القرن الثامن عشر، في وقت بدا فيه أن الانفتاح يطال كل شيء، وأن كل شيء يتحرك، وأن كل شيء قابل للتفاوض في أوروبا عصر الأضواء وفي العالم، يأتي دور جان – جاك روسو Jean - Jacques Rousseau ليظهر في كتابه خطاب حول جذور عدم المساواة[٤٤]، الصادر في عام ١٧٥٤م أن الثروة والسيادة تحتاج إحداهما للأخرى لإيجاد فرص يستفيد منها الجميع، وتضمن السلام.

إن الغني، مدفوعاً بالضرورة، يضع في نهاية الأمر تصور مشروع من أكثر المشاريع التي يمكن أن تكون خطرت ببال إنسان ذكاء... "يقول لجيرانه: لنتحد لنحفظ الأكثر ضعفاً بيننا من الظلم، ومن أجل احتواء الطموحين، ومن أجل أن نؤمن لكل فرد امتلاك ما هو له. لنضع أنظمة للعدالة والسلام يكون الجميع مجبراً على

---

(٤٣) ميكافيللي، الأمير، الفصل ٢١. [ترجم كتاب الأمير لميكافيللي عدة ترجمات إلى العربية، آخرها ترجمة أكرم مؤمن، نشرتها دار مكتبة ابن سينا، القاهرة، ٢٠٠٤م، قارن بالترجمة المذكورة، ص١١١. المترجم].

(٤٤) Discours sur l'origine de l'inégalité.

الالتزام بها، أنظمة لا تستثني أحداً، وتصلح بشكل من الأشكال نزوات الثروة بأن تضع القوي بمساواة الضعيف في الواجبات المتبادلة. وبكلمة واحدة، لنجمع قوانا في سلطة عالية تحكمنا حسب قوانينها الحكيمة، سلطة تحمي كل أعضاء الجماعة وتدافع عنهم، وتدفع الأعداء المشتركين وتجعلنا في انسجام أبدي بدلاً من أن يوجه بعضنا تلك القوى ضد بعض".

إن القانون هنا مدعوٌّ ليسهم في التوزيع العادل للأمن والثروات. ويعد روسو في كتابه: **في العقد الاجتماعي**[٤٥]، الصادر عام ١٧٦٢م أنه ما زال هناك عبور إيجابي، عقلاني من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية، وهو يقرظ القوة الملزمة للدولة بوصفها وحدها قادرة على الحفاظ على التوازن بين الحرية الفردية والمصلحة العامة وتأمين تطبيق القانون. ينبغي على حرية الفعل لدى كل إنسان أن تقتصر على ما يملكه، في حين أنها في الفضاء الشعبي محددة بالقرار الذي يجمع عليه كل أولئك الآخرين الذين يشكلون الكادر السياسي.

وفي العصر نفسه يشرح **إيتين بونو دو كوندياك**[٤٦] Etienne Bonnot de Condillac في كتاب يتم تجاهله غالباً، عنوانه: **التجارة والحكومة نظرة إحداهما بالنسبة إلى الأخرى**[٤٧]، الصادر عام ١٧٧٦م، أن مهمة السلطة السياسية، ما دامت المبادلات

---

(٤٥) Du contrat social 1762. وقد ترجم إلى العربية عدة ترجمات: **العقد الاجتماعي، أو مبادئ الحقوق السياسية**، عادل زعيتر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٥م، ١٩٥٦م؛ مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٩٥م؛ وترجمة **ذوقان قرقوط**، دار القلم، بيروت ١٩٩٧م بعنوان **في العقد الاجتماعي**. ترجمة **حسن سعفان**، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م. وترجمة **عبد الكريم أحمد**، مراجعة توفيق إسكندر، القاهرة، بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي، مصر، بلا تاريخ. وبعنوان: **في العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي**، تعريب **عمار الجلاصي** وعلي **الأجنف**، دار المعرفة المرحة، تونس، ٢٠٠٤م. [المترجم]

(٤٦) **إيتين بونوت دي كوندياك** (١٧١٥ – ١٧٨٠م): فيلسوف فرنسي مشهور من فلاسفة عصر التنوير. [المترجم]

(٤٧) Le Commerce et le Gouvernement considérés l'un à l'autre, publié en 1776.

التجارية لا تحترم ألبتة معادلة القيم التي تم تبادلها عندما لا تكون هناك رقابة عليها، حماية الحرية الضرورية للمبادلة العادلة، وبالتالي مراقبة تناسب الأسعار وتشجيع ذلك. إن تأطير القانون هذا هو مسألة فعالية اقتصادية، وليس مسألة دينية أو أخلاقية:

لكي تتكاثر الثروات بوفرة هي بحاجة إلى قوة تحمي المعمِّرين، والصناع والفنانين والتجار. تلك السلطة تسمى سلطة سيادية. الحرية وحدها هي التي يمكن أن تحدد لكل شيء سعره وتسهم في ازدهار التجارة. حينئذٍ يسود النظام طبيعياً، ويتضاعف الإنتاج من كل نوع شأنه شأن الاستهلاك؛ ويصبح لكل الأراضي قيمة؛ ويجد كل مواطن مورد العيش في عمله، وينتشر الرخاء.

وبذلك يكون هناك في القرن الثامن عشر قبل حينها بحث عن "عولمة" موفقة لإبراز قيمة الأرض والسوق، عولمة تكون فيه الحرية التي تضبط الدولة حدودها في أصل الرخاء والقوة. ستكون الحرية التجارية والسياسية من الآن فصاعداً مكونة للإبداعية وللتاريخ الاقتصادي حينما تشجعها السلطة السياسية وتؤطرها، صادرة في ذلك عن إحساس قوي كل القوة بالهوية الوطنية والإقليمية.

ونعلم أن ماركس Marx انتصر لهذا التلميح إلى سلطة سياسية قادرة على تنظيم رأسمالية للسوق المعولم. والعولمة الأقل توفيقاً التي وصفها أصبحت من الآن فصاعداً بين ظهرانينا، حتى لو أن البروليتاريا، خلافاً لما يتمناه، لم تستلم السلطة.

يكتب جاك آتالي Jacques Attali، مؤلف: **كارل ماركس أو روح العالم**[٤٨] في مجلة **النوفيل أوبزرفاتور** Le Nouvel Observateur، عدد خاص، ٢٠٠٧م قائلاً:

انفجار الرأسمالية، وظهور الهند والصين، وبعموم أكثر "دخول كل الشعوب في شبكة السوق العالمية"، وتصاعد الفردية، وتجمع رأس المال، وإضفاء الصفة التجارية على العالم، وتزايد الصناعة المالية: لقد توقع ماركس كل هذا.

---

(٤٨) Jacques Attali, Karl Marx ou l' espret du monde, Paris, Broché, 2005.

وليس آتالي هو الوحيد الذي اعترف بسداد بعض من تحليلات الفيلسوف. فمدير منظمة التجارة العالمية باسكال لامي الذي سبق ذكره، وهو رجل يساري، والليبرالي آلان مينك Alain Minc يريان أن ماركس قدم أدوات قيمة لتحليل الرأسمالية المعاصرة. يشرح آلان مينك قائلاً:

ماركس هو الوحيد الذي تفكر في الاقتصاد والمجتمع في آن معاً. لقد استنبط ثلاثة عوامل للإنتاج، رأس المال والعمل والثقة.

ولكن باسكال لامي يلاحظ أيضاً:

كان ماركس أفضل منظري الاقتصاد بقدر ما كان أفضل مفكر سياسي(٤٩).

ويرى عالم الاقتصاد ميشيل – هنري بوشيه Michel-Henry Bouchet أن العولمة هي تلك

الآلية الاقتصادية التي تقوم على الصعود القوي لنظام رأسمالي عالمي، تتركز على التنافس والفائدة، وتديرها جدلية علاقات القوة في إطار السوق... إن الأنكلو – ساكسونيين عندما يجمعون بين مصطلحي العولمة mondialisation والكونية globalisation يركزون بذلك على تطور كوكب فرِضت فيه قوانين السوق، واكتسب الفلك المالي منذ نصف قرن استقلاله الخاص، وأعاد تشكيل دور الدولة... دون أن يلغيه على الرغم من ذلك(٥٠).

إن الدول وجدت نفسها في الإخفاق الأخير لمفاوضات منظمة التجارة العالمية، في جنيف عام ٢٠٠٨م تنوء بالأزمة الزراعية والاقتصادية، واتضح أن النظام الرأسمالي العالمي تديره جدلية أكثر جماعات الضغط قوة بالتحالف مع السياسيين. أين هي والحالة

---

(٤٩) شالنج "تحديات"، "ماركس: تحليل معاصر على الدوام"، رقم ١٠٣، ٦ ديسمبر"كانون الثاني" ٢٠٠٧م.
Challenges, "Marx: une analyse toujours actuelle", no 103, 6 décembre 2007.

(٥٠) ميشيل هنري بوشيه، الكونية مدخل إلى اقتصاد العالم الجديد، تقديم فرانسواز كروينيو، باريس، دار نشر بيرسون إيديكاسيون، ٢٠٠٥م.
Michel - Henry Bouchet, La globalisation - Introduction à l'économie du nouveau monde, préface de Françoise Croigneau, Paris, Ed. Pearson Education, 2005.

هذه قوة الدول؟ وقد لاحظ مؤخراً عالم الاجتماع أندرو سوليه Andreu Solé أن الأهمية المعاصرة للخصخصة، بوصفها من قرارات القوة الشعبية لتحويل الممتلكات العامة إلى ممتلكات خاصة تظهر قبل كل شيء قوة الدول. ويشرح ذلك قائلاً:

[٦١] بدأت الدولة في عدد كبير من البلدان منذ الثمانينيات بإعادة تشكيل الإطار الذي ينظم النشاط الاقتصادي: إنها "تعطل"، تحدد "قواعد جديدة للعبة"، تنشر "قيماً" هي لمصلحة الملكية الخاصة أكثر مما هي لمصلحة الملكية العامة. وإذا قبلنا فكرة أن السلطة تتمثل على وجه الخصوص في القدرة على الإبداع، وعلى فرض الإطار الذي يتصرف البشر في حدوده فإنه ينبغي القبول أن سلطة الدولة اليوم هي سلطة أساسية(٥١).

وإنه لمن المناسب حينئذٍ التساؤل عن المنطق الذي يسود في إعادة التشكيل التي يقوم بها الاقتصاد لدور الدول، أو التي تقوم بها الدول للإطار الذي ينظم النشاط الاقتصادي، وما قواعده الخاصة، ألا يخضع رجال السياسة بالضرورة لضغط الآراء العامة، وخصوصاً في حالة الأزمات الغذائية الحادة؟ ألا يكتفون بمناصرة إرادة أكثر الجماعات تأثيراً في داخل الدول؟ وباسم أي شيء في نهاية الأمر، وفي نظام ديمقراطي يستطيع المواطنون أن يمنحوا للقوة الشعبية حق ممارسة قوتها الملزمة بحقهم؟ إن مفهوم "الملكية العامة" إذا كان ما يزال موجوداً، وما يزال له مكان في البلدان، حتى تلك التي تُسمى ديمقراطية، يبدو غالباً في تصور "الوظائف السيادية" مفهوماً غارقاً في الضبابية. أي نمط من الروابط بين ذلك الكيان الخاص أو تلك الشخصية والدولة يمكن أن يحمل هذه الأخيرة على أن تبيع بأرخص الأثمان تلك "الملكية العامة" باسم "المنفعة العامة" لتحقيق فائدة كبيرة "للمصلحة الخاصة" دون أن تخشى وهي تفعل ذلك من ارتفاع نسبة عدم التساوي، والفقر، والظلم، وبالتاليّ، ازدياد الشعور بعدم الرضا؟

---

(٥١) أندريه سوليه، القوة التي تنظم عالمنا، المجلة العامة للإستراتيجية، ٢٨ أكتوبر "تشرين الأول"، ٢٠٠٦م، ص٦.

Andreu Solé La force organisatrice de notre monde, Revue générale de stratégie, 28 octobre 2006, p. 9.

إنه لمن الثابت أن الاعتبارات الانتخابية أو السلام الاجتماعي هي التي تحدد في الأعم الأغلب معظم المواقف السياسية لحكومات دول العالم كلها، سواء كانت تلك المواقف داخلية أو دولية، وسواء كانت تلك الدول ديمقراطية أو ديمقراطية نسبياً. وبتحديد أكثر، إن لكبريات المنظمات العالمية فيما يخص إعادة تشكيل الاقتصاد لدور الدول، أو إعادة تشكيل الدول للإطار الذي ينظم النشاط الاقتصادي جانباً من المسؤولية في ذلك: كما هي حال **صندوق النقد الدولي** (FMI)، **والمنظمات غير الحكومية** (OMG)، وعلى وجه الاحتمال **الاتحاد الأوروبي**، تلك المنظمات التي يبدو في بعض الأحيان أنها باسم العولمة تدافع عن حتميات بعض القوى، وتحدد توجهات الحياة الاقتصادية، وهناك أيضاً **منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية** (OCDE). وإنه لمن المعروف أيضاً أن إدارة كبريات المنشآت العامة للدول تسند لأعضاء من الفئات أو الشبكات المؤثرة، ويتم ذلك في الأعم الأغلب دون الاهتمام بأي مصلحة اقتصادية وسياسية وثقافية؛ إذ تحتوي آليات قرار الإسناد أو التعيين على مواجهات ومساومات وتوافقات تصل إلى أعلى مستويات الدولة. والوضع بالطبع مختلف كل الاختلاف في الشركات الخاصة الكبرى التي لم تصطبغ بصبغة إقليمية، سواء كانت غربية أم لا: إن متطلبات الشفافية، وانتباه الرأي العام الذي تثيره المنظمات غير الحكومية، ومكاتب التأشير الاجتماعي، وتعاظم مسؤوليات الحكومة لتشمل المسؤولية الاجتماعية، والتنمية المفروضة بقليل أو كثير، والغامضة بقليل أو كثير على عدد من أشكال الديمقراطية، كل ذلك، يحول تحويلاً كبيراً الشروط العامة للنشاط الاقتصادي وابتداع القيمة في مجموع تلك الشركات. ويتضح على وجه العموم أن الدول لا تبدو على الدوام مؤهلة لخدمة مصالحها الوطنية الخاصة، ولا لتأمين أمن مواطنيها وحركيتهم وحريتهم، فالسياسيون لا يأخذون في الحسبان كل ما يحسون بأنه يمكن يوصل أي مجتمع إلى حالة يكون له فيها بذاته التمثيل الخاص به للخير والشر، ومُثُله الفلسفية والدينية، وعلاقته الخاصة بالزمن وبالسلطة وبالعمل وبالرغبة وبالأسرة وبالآخرين، أي بكل ما نسميه رأس المال البنيوي أو غير المادي.

ولنُمثِّل لذلك بحالة فرنسا. إذ إن كتاب لوران مودويه Laurent Mauduit، **نصائح بسيطة**، الصادر عام ٢٠٠٧م، وهو يقدم مجموعة من النتائج انتهى إليها استطلاع حول التطبيع الاقتصادي، وحول الابتذال في المقال الافتتاحي لصحيفة **اللوموند**، يشير إلى بعض من المشوشات الجدية التي تعاني منها الديمقراطية في هذا [٦٢] البلد. يستشهد المؤلف بتصريح لرينيه باربييه دولا سير René Barbier de la Serre، الرئيس السابق **لمجلس الأسواق المالية** في صحيفة **اللوموند** الصادرة في الثامن والعشرين من أبريل "نيسان" ٢٠٠٦م، وهو تصريح يلتقي تماماً مع قناعات الفلاسفة والمؤرخين المذكورة سابقاً:

إن ما يصنع السمعة الطيبة لأي مركز هو الخلق الجماعي والفردي، وخصوصاً احترام الكلمة المعطاة، والشفافية، والعدل. و إلاّ ساد قانون الغاب، أي عكس ما يقتضيه السوق... إن الأخلاق تمثل بالنسبة إلى عالم الاقتصاد ما تمثله الديمقراطية بالنسبة إلى عالم السياسة. ولا نشعر بسمتها الجوهرية إلا عندما تختفي. إذنْ، تمثل الأخلاق عنصراً جوهريا من عناصر وجود أي سوق مالية[٥٢].

إن القدرة الجماعية والفردية على امتلاك القدرة المالية قد ضعفت هنا عندما سُخِّرت لغايات سياسية بل خاصة. عندما يؤكد الرئيس السابق **لمجلس الأسواق المالية** السمة الجوهرية للأخلاق لأنها تفضي إلى موقف كفاءة وامتياز، وهذا يعيد إلى تأكيد أهمية الحفاظ على ما يكوِّن رأس المال اللامادي لأي مركز مالي وتطويره، وعلى وجه الخصوص للمركز المالي في باريس، ونعني احترام الكلمة المعطاة، والشفافية والعدالة. إن هذا الحفاظ وهذا التطوير لم يعودا والحالة هذه متوافرين لأن التشويشات عديدة، فرجال السياسة وكبار الموظفين الذين يشاركون في هذه التشويشات لا يشعرون بأنهم بذلك يسهمون في تحويل أسس الديمقراطية والوعي الجماعي عن مسارهما.

---

(٥٢) استشهد بهذا القول لوران مودويه، **نصائح بسيطة**، باريس، ستوك، ٢٠٠٧م.
Cité par Laurent Mauduit, Petits conseils, Paris, Stock, 2007.

إذا كانت الأخلاق تشكل العنصر الأساسي في كينونة أي مركز مالي، وإذا كانت تشبه بالديمقراطية في السياسة فإنه يمكننا أن نفترض أنها تشكل بالقدر نفسه، وربما بزيادة ملموسة، العنصر الأساسي لكينونة ما يمكن أن نسميه "مركز ثقافي أو فكري"، من جراء أنه في مثل هذا النمط من المراكز تتم على وجه الخصوص إعادة إنتاج كل رأس المال البنيوي لبلد ما، لكفاءاته وامتيازاته وتطويرها. وإن مثال المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا هو مثال بليغ. إن "الجامعات الفرنسية" التي "هي في حالة من التداعي المؤسساتي والأخلاقي لا نستطيع معها أن نرى إلامَ يرمي ضخ مخصصات ضخمة في جسد ضخم مريض"، كما كتب ذلك مؤخراً واحد من أساتذة المدارس الباريسية الكبرى، وإذا كان يبدو من الصعب أن نذكرها بوصفها "مركزاً فكرياً" فإن "**المركز الوطني للبحث العلمي** (CNRS) الذي يحسدنا عليه الأمريكيون" هو في المقابل، وبلا شك، وبالتحديد، ذلك المركز الفكري الذي يطبق فيه "توازن عقلاني بين الحرية والنظام"[٥٣]. إنه التوازن الذي يغليه الإنسيون والفلاسفة. إن الأخلاق الجماعية والفردية هي هنا ذلك الاهتمام المنصب على صيغ بناء الأشياء وحقائقها – تلك النظرة المختلفة، وهي أيضاً العدالة والالتزام على المدى الطويل. في حين أنه يبدو أن الاهتمام القيادي للدولة، في منطق يجمع برامج ومشاريع يبنى فيه كشف المعاينة بوصفه مذهباً يزعم أنه ينتج حقائق "مؤثرة" ونهائية ووحيدة "عقيدة كونية"، لا يُحسب فيها حساب إلا للصخب والضجيج الإعلامي، لا يولي أي أهمية للآليات، لروابط التساوي بين الأفراد – رأس المال الاجتماعي، اللامادي الذي يمكن أن نضعه في مستوى الكوني – لزمن الإنسان بدل الزمن المبرمج، لإنشاء "حقل للقوة المناسبة لولادة الأفكار الجديدة. والحال أن فرنسا اعتمدت على هذه النقاط عندما اتخذت قراراً

---

(٥٣) **جيوفري بودينهوسين**، أستاذ الكيمياء في المدرسة الوطنية العليا في باريس، رسالة في ٩ نوفمبر "تشرين الثاني" ٢٠٠٧م.

Geoffrey Bodenhausen, professeur de Chimie à l' ENS de Paris, message du 9 nouvembre 2007.

حاسماً بإنشاء **المركز الوطني للبحث العلمي**، كيان فريد من نوعه في العالم"، كما يقول أيضاً **جيوفري بودينهوسين** مقتفياً بذلك أثر **ألبير فير** Albert Fert، الحائز على **جائزة نوبل** في الفيزياء عام ٢٠٠٧م. ومع ذلك، وفي حين أن الشهرة العالمية للعلماء والمؤلفين والباحثين الفرنسيين لا تثير إلا الحسد أو، في أحسن الأحوال، الإعراض فإن موضوع الاجتذاب يحل محل مفهوم التميز، مما أدى إلى أن الفرنسيين لم يعودوا يرون من واجبهم أن يضعوا أبناءهم موضع الكفاءة [٦٣] والتفوق لأن البلد في كل الأحوال مستعد من الآن فصاعداً لأن يشتري من أي مكان، وبكلفة أغلى، الكفاءات والمتفوقين الذين لم يشجع مواطنيه على تأهيلهم. ولنذكر هنا بواحدة من النتائج الرئيسة التي انتهى إليها المؤرخ **كريستيان جاكوب** الذي سبق ذكره: لم تكد السلطة القائدة تنجح في التشجيع الدائم لازدهار العلوم والتقنيات والأفكار على وجه العموم.

إن التعلق الأخلاقي بالعلامات المادية للفاعلية أكثر من تعلقه بالعلامات اللامادية هو عقبة مهمة أمام الانفتاح على الممكنات وعلى الاكتشاف العلمي. ومن هنا جاءت المفارقة: في حين أننا نمتلك معارف وتجارب تربطنا بالعالم وتسمح لنا بأن نشعر بأننا قسم منه، تفتح لنا المستقبل انطلاقاً من الماضي محفزة نزعة الاختراع والإبداع لدينا، معارف وتجارب تسمح لنا بأن نرى رؤية مختلفة، أهداف الدول والمؤسسات التي هي عملياتية ومادية حصراً، متركزة على مصالح خاصة أو فردية تضيق ذلك الانفتاح الممكن. أين هي حرية الكائن، احترام الذات، الرغبة في التجاوز التي نظّر لها تنظيراً رائعاً إنسانيو الماضي؟ في حين أن الحضارة والقيم والمعتقدات والهوية هي عوامل للنماء. يبدو أن الشروط التي وفرت القوة **لأوروبا**، ثم **للولايات المتحدة الأمريكية** ثم **لأوروبا واليابان** لم تعد مجتمعة لأن هذه البلاد لم تعد تتخذ بما يكفي أو لم تتخذ ألبتة الوسائل اللازمة لإنتاج أو إعادة إنتاج الكفاءات والمعارف التي كانت من أهم صفاتها. العولمة من الآن فصاعداً هي سوق ضخمة للبشر، للكفاءات والعمل، دون أي حس تعاوني أو مسؤوليات.

٤- الشركة، قوة جديدة لتنظيم العالم، بين العولمة والتنوع في تطواف الأرض

IV. L'entreprise , nouvelle force organisatrice du monde, entre globalité et diversité au parcours de la terre

إنه لمن المفارقة أن تكون الشركات الخاصة، وهي تسهم في تشكيل العالم الجديد للمشاركة الكونية للبشر في السوق هي التي تجد نفسها في بعض الأحيان مدفوعة إلى أن تأخذ على عاتقها إعادة توزيع مسؤولة للثروات والكفاءات، إعادة توزيع هي واحدة من أهداف التنمية المستدامة التي يبدو أن الدول لم تعد مؤهلة لتأمينها على الدوام كما أظهر ذلك إخفاق مفاوضات منظمة التجارة العالمية في جنيف. إنه لمن المؤكد أن البلدان التي تنضوي تحت لواء اقتصاد هذا العالم الجديد يمكنها أن تحمل معها قناعاتها الخاصة، وأفكارها ورغباتها التي تعطيها في البداية القدرة على التصرف لأن كل شيء... يمتلك شهية الاكتمال اكتمالاً تاماً حسب ذاته نفسها وفي ذاته نفسها، كما يقول ذلك جيوردانو برونو؛ ولكن الليبرالية، والديمقراطية، والحقوق تتغير معناها مقابل رغبات أخرى وطنية وإقليمية، ومطالب أخرى في السيادة والانفصال كما ذكرنا ذلك فيما سبق. حينئذٍ تتضح ملامح مسألة الانطلاق بالعبارات التالية: إذا كانت الشركة ذات الصبغة العالمية هي في المقام الأول جسد حي، في حركة مستمرة، تطوف الأرض، تتكون من شخصيات تنحدر من أوساط جغرافية متنوعة، في بيئة معقدة وغير مؤكدة، وإذا كانت مظهراً من مظاهر تلك "التجارة بين الإنسان والطبيعة التي هي الزراعة"، كما شرحت ذلك حنة أرنت، فهل يمكن للشركة أن تأخذ ذلك على كاهلها على الرغم من ضعف الدول بل تدهورها. وبالنتيجة ضعف الأنظمة التقليدية في الانتماءات وفي مشاعر التأصيل المختلفة كل الاختفاء بل تدهورها؟

قدم الفيلسوف الإسكوتلندي آدم سميث Adam Smith في كتابه **نظرية المشاعر الأخلاقية** الذي ظهر عام ١٧٧٦م تحليله المشهور لفرد كان وهو يوظف رأس ماله في شركة من شركات بلده.

لا يرمي إلا أمنه الخاص؛ وكان، وهو يوجه تلك الصناعة بطريقة يمكن لإنتاجها أن يكون له معها أعلى قيمة ممكنة، فإنه لم يكن يرمي إلا إلى تحقيق ربح خاص به. وهو في هذه الحالة، كما في [٦٤] حالات أخرى كثيرة تقوده يد غير مرئية لتقديم غاية لم تكن جزءاً من نيته. وليس عدم كونها جزءاً من نيته هو على الدوام أسوأ ما يمكن أن يطال مجتمعه. إنه، وهو يسعى وراء مصلحته الشخصية، يدفع بمصلحة المجتمع إلى الأمام بفاعلية أكثر مما لو كان هدفه مصلحة هذا الأخير حقاً. لم أر ألبتة كثيراً من العمل الجيد يقوم به أولئك الذين يتجرون للصالح العام[٥٤].

إن الفرد، وهو يرمي إلى مصلحته الفردية، "أمنه الخاص" يعمل أيضاً من أجل "صناعته"، وهذا ما يعود بالنفع على الخصوصي، كما يعمل "لمصلحة المجتمع" و"للمصلحة العامة"، وهذا ما يعود بالنفع على الكوني. وإنه لمن الملاحظ أن الفيلسوف وعالم الاقتصاد يسلط الضوء هنا، وبطريقة غير منتظرة ألبتة، على التداخل المعقد لما يمكن أن نحدده بوصفه المستويات الثلاثة التقليدية لعلم الأخلاق، بوصفه علماً للتصرفات، وهي بالتحديد: **الكوني والخصوصي والفردي**. فالكوني هو المستوى المثالي، الذي لم يُدرك ألبتة، والذي يجري البحث عنه على الدوام، إنه ذلك الأفق، أفق الحقيقة؛ أما الخصوصي فإنه مستوى الانتماءات لجماعات، ولتجمعات تتموضع فيها القوانين والروامیز، والطقوس، والعادات؛ أما الفردي فهو المستوى الشخصي الذي تدخل فيه الحرية والمسؤولية. ولن يكون بإمكان مستويات علم الأخلاق الثلاثة أن تتداخل، والفرد الذي يراقبه سميث لم يخلط بينها. ولا يورد سميث هنا أي تلميح لأي دور كائنا ما كان للدولة. وفي مكان آخر يتبنى مقولة إن المهمة الوحيدة للحكومة تتمثل في حفظ النظام واحترام القانون، وبأن تخفف إلى أدنى حد ممكن العوائق القانونية التي تثقل كاهل التجارة والأسعار؛ إنه يصادر على سوق "كامل" مع مزاحمة

---

(٥٤) آدم سميث، **نظرية المشاعر الأخلاقية**، الكتاب الرابع، الفصل الثاني.

Adam Smith, La théorie des sentiments moraux, Livre IV, chap. 2.

قوية ودائمة، وعلى شفافية المعلومات. ولكن النص الذي استشهدنا به لا يعرض في واقع الأمر لمسألة "السوق"، أي لمجموعة من العلاقات بين البشر الذين يندرجون في الفضاء والزمان كما يمكن أن يكون قد رآهم أو وصفهم، أو رغب أن يراهم، أو كما حلم بهم الرحالون أو المؤرخون أو الفلاسفة.

إن الشركة التي وصفها سميث ربما تكون تلك الشركة المنظمة سعياً إلى التميز وإبطال المنافسة "بطريقة يصبح معها منتجها قادراً على أن يكون ذا قيمة كبيرة". هل يمكن أن نتخيل أن تلك الشركة يديرها مسؤول - أو مسؤولون - يستخدمون تقنيات متطورة وهجومية، وإستراتيجيات بارعة في التسويق، وربما يلجؤون أيضاً إلى الاحتكار للوقوف في وجه ما يمكننا تسميته مقتفين أثر حنة أرنت "اقتسام الأرض"؟ كذلك سيتحدث الناس اليوم عن سوق المياه المعدنية أو عن سوق هذا المورد الطبيعي النادر أو ذاك، عن سوق الهاتف المحمول في هذه المنطقة أو تلك القارة. حينئذٍ يمكن للشركة الفلانية أن تزعم أنها أرض جديدة للفعل البشري لأنها أزالت الحدود الجغرافية، والتمييز التقليدي بين المحلي والعالمي، وبين الداخلي والخارجي، وعطلت التمايز الضروري لمستويات علم الأخلاق التي هي أيضاً مستويات تقليدية. إن الشركة، وهي تزعم أنها توفق بين الاستثمارات التي تحقق أكبر ربح ممكن، وبين استهلاك المواد النادرة في العالم، دون أن تترك ذلك بالضرورة للدول، تصنع صيغ حياة جديدة، واحتمالياً تصنع هويات جديدة. إن المسافة بعيدة بين المعيار الكوني، المصلحة العامة التي يمكن لها أن يباهي بنفسه ويعلق على نفسه، وبين المعيار الخاص، المقبول اجتماعياً، وهو معيار مصلحة الشركة، وبين المعيار الفردي الذي يتدخل بلباقة ويفرض نفسه، ربما بأن يجعل المعيار الأول مجرد تسمية. ومع ذلك فإن هناك، كما يرى سميث، "غاية" "معلنة" تترك، لأنها ليست "جزءاً من النية" مجالاً، ممكناً لعمل التفكير، والفكر، والارتحال عبر حقول مفهومية أخرى وعبر مناطق أخرى من الأرض، وهو عمل ينضوي تحت لواء الديمومة، وهو أيضاً عمل يعد مؤشراً للحرية ولقدرة أخلاقية.

وقد برهن المؤرخ **فرنان بروديل** Fernand Braudel ببراعة في كتابه **حضارة مادية، واقتصاد ورأسمالية من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر** أن "الرأسمالية" تعارض السوق[٥٥]. [٦٥] إن جماعات الضغط الوطنية أو التعاونية في داخل البلاد هي التي عارضت التبادل التجاري الحر وتوزيع الموارد في اجتماع منظمة التجارة العالمية، عام ٢٠٠٨م. وإذا عدنا إلى مفهوم **الأرض من السماء ليان أرتوس – بيرتران** فإنه من الملاحظ أن "الأسواق" التي يجري تصويرها هي على وجه الخصوص أسواق البلاد "الفقيرة" مثل **إفريقيا أو أمريكا الجنوبية**.

إذا كانت جنسية الشركات في التسعينيات أصبحت عرضية في إرساء أسس إستراتيجياتها وتحديد قدراتها، في مصلحة مساهميها فإن المسار المتزايد لعمليات الخصخصة، ليس في أوروبا فقط، وإنما في بلاد مثل روسيا والصين والهند تظهر بجلاء صعود نجم الشركات في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للبشرية جمعاء. وفي هذا السياق إن نظرية "نهاية التاريخ"، التي جاء بها **فرانسيس فوكوياما** Francis Fukuyama، وتستوحي أعمال **هيغل ونيتشة** في آن معاً، تقوم على القول إنه عندما تسيطر لبرالية اقتصاد السوق والديمقراطية المرتبطة به على العالم كله بعد سقوط الشيوعية فإن الأمم كلها ستكون قد أصبحت متشابهة تشابهاً مطلقاً، وتشترك بقيم الحرية والمساواة نفسها حتى إننا نشهد انتصار "الرجل الأخير" الذي يكون يحرص على التمتع بحياة هانئة أكثر من حرصه على فرض نفسه عبر إبداعه العلمي أو الفني، وهو بالطبع مجرد من كل أشكال العدائية[٥٦]. وأظهرت أحداث **جنيف** الأخيرة أننا بعيدون

---

(٥٥) **فرناند بروديل، حضارة مادية، واقتصاد ورأسمالية من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر**، باريس، أرمان كولان، ١٩٧٩م.

Fernand Braudel, Civilisation matérielle, économie et capitalisme, XV - VIII siècle, Paris, Armand Colin, 1979.

(٥٦) **فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وآخر البشر**، شام فلاماريون، ١٩٩٢م.

Francis Fukuyama, La fin de l'histoire et le dernier home Champs Flammarion, 1992.

[وقد ترجم إلى العربية ترجمتين صدرتا في عام ١٩٩٣م أولاهما ترجمة حسين أحمد الأمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر بعنوان: نهاية التاريخ وخاتم البشر، والثانية بترجمة حسين الشيخ بعنوان نهاية التاريخ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، بيروت. المترجم]

كل البعد عن مثل هذه "النهاية للتاريخ". ولكن عن أي شكل من أشكال الديمقراطية يتحدث هنا فوكوياما؟ عن أي حرية، وهل هناك على وجه الخصوص مسألة لن يعترضها عُرْف يقتضي استخدام العقل وإبداعيته الخاصة وحريته؟ ما ذا سيكون الواقع الفعلي لإعادة توزيع ثروات العالم؟ هل يمكن حينئذٍ الحديث عن خطر الدولة الشمولية؟ وهاهو جاك آتالي "يتنبأ" في الاتجاه نفسه تقريباً:

إن الشركات الضخمة التي تقوم على آلاف الجماعات المختصة ستؤثر في وسائل الإعلام المتنوعة – عبْر الابتزاز في الإعلانات – لكي توجه اختيار المواطنين. ثم تعمد إلى إضعاف الدول... ثم السوق، عبر السمة الكوكبية، وتنتهك قوانين الديمقراطية عبر السمة المحلية. إن أكثر أعضاء الطبقة المبدعة غنىً يعدون إقامتهم في أي بلد عقداً فردياً يستبعد أي شكل من أشكال الولاء والتضامن مع أبناء بلدهم(٥٧).

وإذا كان من المسلم به أن الديمقراطية بدأت في فضاء الأرض وزمنها، في أمكنة محددة بدقة وفي عصور من التاريخ لا جدال حولها فإن العولمة هي اليوم مفهومة غالباً على أنها تجعل البشر متحركين ولا جذور لهم شأنهم شأن رؤوس الأموال، والخدمات والثروات ولو كان ذلك يعرض لخطر سحق مفهومي البعد والمسافة. إن المال وصيغة الحياة والقانون هي التي تصنع من الآن فصاعداً قرارات الانفصال. ويتضح أن **باريس** هي في بعض الأحيان أكثر قرباً من **مكسيكو** منها إلى **لندن** أو **غرانفيل**. إن التحدي الجديد، في "نهاية التاريخ" المعلنة هذه سيكون حينئذٍ، إذا اقتبسنا عبارة **هيرفي جوفان** Hervè Juvin، تحدي "ديمقراطية بلا أرض"(٥٨).

والحال أن أولئك الذين يطوفون الأرض في عصر العولمة بعيدون كل البعد عن أن يكونوا متشابهين. بل هم على العكس بعيدون كل البعد عن طوافها بالشروط

---

(٥٧) **جاك آتالي، تاريخ قصير للمستقبل**، باريس، فايار، ٢٠٠٦م، ص. ٢٦٢ – ٢٦٣.

Jacques Attali, Une brève histoire de l'avenir, Paris, Fayard, 2006, p. 262 - 263.

(٥٨) **هيرفي جوفان، النماذج الجديد للتنمية**، أوروغروب أنستيتو، ٢٠٠٦م.

Hervè Juvin, Les nouveaux paradigms du développement, Eurogroup institute, 2006.

نفسها، فبعضهم، وهم قليلو العدد، في أفضل درجات شركات الطيران، وآخرون، عشرات الملايين، يطوفونها على دروب العوز.

لننظر على سبيل المثال إلى حالة الملياردير جورج سوروس Georges Soros، وإن كان في واقع الأمر مثالاً موغلاً في الغرابة، وجورج هذا يهودي مجري ذهب للدراسة عام ١٩٤٧م في لندن التي تابع فيها دروس كارل بوبر Karl Popper، وأصبح ممن تبنوا مفهومه في "المجتمع المفتوح". وذاع صيته بسبب نشاطاته في المضاربة على العملات، ويقول عن نفسه إنه "رجل دولة بلا دولة"، يطوف الأرض بلا كلل ولا ملل، رجل يسعى إلى [٦٦] إضفاء العقلانية على العولمة، وإلى تمكين الجميع من السعادة والنماء بتجاهل الحدود الوطنية وبتطوير مؤسسات دولية ينبغي عليها كما يرى أن تصبح أكثر قوة بفضل تحسين "القانون الدولي" الذي يتضمن "القانون العرفي". لقد صرح تصريحاً رائعاً وهو يعد نفسه ممثلاً لعدد من الجماعات الغربية المعارضة للشمولية، ولقواها في إحداث التغييرات ونزع الفواصل:

أؤلف بين ثلاث كفاءات: إطار مفهومي يسمح لي بشكل من أشكال فهم التاريخ (وعلى وجه الخصوص فهم ما أسميه الظواهر خارج التوازن)، ومجموعة من القيم الأخلاقية والسياسية، ونجاح مالي من الطراز الأول... إن ما يتحكم بالعلاقات الدولية هو القوة وليس القانون. وقد حل زمن تغيير هذا وفرض القانون الدولي. إذنْ، ينبغي على المؤسسات الدولية أن تصبح قوية... إن الاستخدام هو الذي ينبغي أن يحدد القواعد، ويظل هناك الكثير مما ينبغي فعله للقانون العرفي في العلاقات الدولية[٥٩].

يود سوروس الذي يمتلك مؤسسات "أخلاقية" و"مسؤوليات اجتماعية" أن يكون له بالفعل "تأثير في مسار التاريخ". و"المجتمع المفتوح" الذي يدعو إليه، بدون أي قواعد أخرى أو مبادئ أخرى إلا قواعده الخاصة من المحتمل على وجه الخصوص أن

---

(٥٩) جورج سوروس، **الفوضى العالمية العارمة**، باريس، منشورات سان - سيمون، ٢٠٠٦م، ص١١.
Georges Soros, Le grand désordre mondial, Paris, Editions Saint - Simon, 2006, p. 11.

يكون مجتمع طبقة "راقية" لأولئك الذين هم بالقدر نفسه خبراء في هروب رؤوس الأموال، ومزودين لاواعيين للسوق برجال باسم حقوق الإنسان وباسم شرعة أخلاقية تحجب مستويات الشرعة الأخلاقية الثلاثة.

"مجتمع راق" لا يسمح بالمرور في الواقع إلا لما هو نافع لها، يضمن طريقتها في الحياة ويمنع غزوها. هذا "المجتمع المفتوح" يبدو بعيداً كل البعد عن أن ينضوي تحت لواء اقتصاد للصلة متوازن، وبعيداً عن المصالحة بين الكلية والتنوع، وعن الانسجام، وعن طواف الأرض العادل والمتيقظ. عندما يتحدث سوروس عن القواعد التي يجد من المناسب تحسينها للوصول إلى "مجتمع منفتح عالمي"، حتى وإن كان يسارع إلى القول إنه لا يقصد وجود "حكومة عالمية" "ستكون بتعريفها تقريباً حكومة جائرة"، متبعاً بذلك اتباعاً غير منتظر قناعات دبلوماسي مثل **هوبير فيدرين**[٦٠] Hubert Védrine، وإنه لمن الواضح أن هذا الدخول في عالم ليس فيه إلا "قانون دولي" واحد سيكون مؤشراً على نهاية ذلك العالم من الرابط والمكان، ومن الانتماء والهوية المتمايزة كل التمايز، ألن يكون ذلك العالم مناقضاً لأي ديمقراطية كانت في بعدها الكامن في البناء التاريخي والإقليمي؟

والحال اليوم أننا لا ننبي نتحدث عن ضرورة إيجاد أو بعث رابط اجتماعي، وضرورة التنبه إلى الذكاء الجماعي، وإلى كل الاختلافات في الأرض. إننا نعيد الاعتبار إلى الأرض وسكانها، الأرض بوصفها عقدة من العلاقات ومكاناً لإرساء أسس ديمقراطية تسبغ عليها حشواً صفة "تشاركية"، ناسين أن كل ديمقراطية تستدعي مشاركة الجميع[٦١]. نكتشف أو نعيد اكتشاف أن الإنسانية لا تستطيع العيش بلا

---

(٦٠) **هوبير فيدرين، استمرارية التاريخ**، باريس، فايار، ٢٠٠٧م.

Hubert Védrine, Continuer l' Histoire, Paris, Fayard, 2007.

(٦١) قارن **بمارك كريبون وبرنار ستيغليه، في الديمقراطية التشاركية – الأسس والحدود**، باريس، فايار وألف ليلة وليلة، ٢٠٠٧م.

Cf. Marc Crépon et Bernard Stiegler, De la démocratie participative – Fondements et limites. Paris, Fayard et Mille et une nuits, 2007.

حدود، وبلا فوارق بين فرد هنا وفرد في مكان آخر، بين فرد في الداخل وفرد في الخارج. هل يعيش الإنسان أفضل إذا نسي من أين يأتي، ومن هم آباؤه وأقرباؤه بالمقابلة مع البعيد، وإذا كان ممشوق القوام، كالشمع يمكن تشكيله كما نشاء، شفافاً كالحرباء، وبالتجرد عن أي اختلاف؟ إن إدارة الأقاليم بمشاركة الجماعة والفرد داخل الأقاليم ومن إقليم إلى آخر هو اليوم أكثر من أي وقت مضى الموضوع الرئيس الذي يلقى انتباهاً من المسؤولين ومن القرار الإستراتيجي. إن "القانون العرفي" الذي يود سوروس أن يدرجه ضمن "العلاقات الدولية، وهو قانون يتحدث عنه على الدوام بصيغة المفرد لا يمكنه على وجه التحديد أن يكون بصيغة المفرد لأنه في جوهره بصيغة الجمع، بصيغة المتعدد، ومختلف. إنه قانون كل جماعة من جماعات العالم التي استطاعت فيما مضى أن تتوافق [٦٧] على بعض التنازلات في مجال السيادة، وتشعر اليوم أنها تتعرض لاعتداء على هويتها بسبب العولمة، وتريد من الآن فصاعداً العودة إلى ممارساتها العرفية القديمة. وهذا ما نسميه "الطائفية". وتثبت الأحداث السياسية المعاصرة أن القوى التي تفرض الحواجز وإجراءات الحماية ضد المبادلات هي قوى ملازمة لقوى المبادلات وإزالة الحواجز. والزمن اليوم هو أيضاً زمن الانفصال والانغلاق، وراء جدران من كل الأنواع، ووراء انتهاكات وغزوات ترافق ذلك؛ ولن يكون تزايد المعايير، وقواعد السلوك، والقوانين إلا تعبيراً عن عودة بغير أمم إلى الجغرافيا، إلى الإقليمية، إلى الاختلاف، ولو كان في ذلك بعض الأحيان خلط بين الحرية والرغبة القلقة بالاحتماء.

إن هناك في موازاة رجل الدولة بلا دولة هذا، الآمن بثروته، الذي يمثل في وجه من الوجوه، كما سبق لنا قول ذلك، مجتمعات غربية معادية للشمولية، كل أولئك الذين حُكم عليهم بالطواف والهجرة، إذنْ بأشكال معاصرة من الحجز على الحدود، في مناطق "حاجزة"، عندما لا تعمد الدول إلى تجميعهم في "معسكرات اللاجئين". هنا تبدو الحدود ضرورية لمنع موجات الهجرة الكبيرة وما يرافقها من اضطراب محتمل، ويبدو بغرابة أن الديمقراطيات المتطورة تصبح أكثر فأكثر، شأنها شأن القلاع الحصينة،

مستعصية على من يريد الوصول إليها. تقوم حدود جديدة. ويحدد بجلاء الدبلوماسي هوبير فيدرين "الفجوة" التي تشكلت بين هؤلاء وأولئك في كتابه استمرارية التاريخ:

فجوة بين السكان الذين لا جذور لهم والآمنين في البلاد الثلاثين الأكثر غنى، أما ما تبقى وهو مئة وخمسة وسبعون مليوناً من النساء والرجال (٣٪ من عدد سكان العالم) فإنهم محكوم عليهم في كل سنة بالهجرة، وبالسير على غير هدى في بعض الأحيان، وباللاشرعية والاستغلال في نهاية مساراتهم الطويلة والمهلكة. فجوة أيضاً، للأسف، بين حاملي هذه الحضارة أو تلك وهذا الآخر أو ذاك، حتى وإن كانت هذه الحالة تخيف، وتُنكر[٦٢].

لا يقولن أحد شيئاً في "الإيديولوجية الكونية" وفي شمولية المال ليس فقط عن بؤس اللاجئين الذي يرتفع عددهم يوماً بعد يوم، ويخسرون كل مواردهم الاجتماعية والثقافية والدينية المرتبطة بأرضهم، وإنما أيضاً عن بؤس أولئك الذين يجدون أنفسهم فجأة، وهم يواجهون مشكلة اللاجئين، وقد سلبت أرضهم، وأصبحوا غرباء في بلادهم، بلا أي حقوق للتعبير، وفي طريقهم إلى فقدان اتجاهاتهم الخاصة بهم. ولا يقولن أحد شيئاً أيضاً، أو أنه يقال القليل، عن أولئك الذين يواجهون على أرضهم وفي معقل حضارتهم ليس مهاجرين بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكن أولئك الأجانب الذين يحملون حضارة أخرى لا يعرفها الأولون، ويخافونها لأنها، كما يرون، تأتي لتسرق العالم الذي كانوا يعتقدون أنهم سيستمتعون به متعة أبدية؛ هم أيضاً يجدون أنفسهم غرباء في بلادهم، ونادراً ما يسمح لهم بالتعبير، وفي طريقهم إلى فقدان اتجاهاتهم الخاصة. وبذلك يكون أي تقارب آخر ملغياً، لم يعد باستطاعته الاحتفاظ بقيمه، وبانتمائه الخاص؛ وهو في أحسن أحواله قيمة مضافة وقدرة على الاستثمار، وعلى استجلاب الغريب المعجب والطريف. كل تلك الفجوات تحمل الأحقاد ومظاهر العنف، المؤهلة تماماً لأن تستغلها كل أنواع الإيديولوجيات.

---

(٦٢) هوبير فيدرين، استمرارية التاريخ، باريس، فايار، ٢٠٠٧م، ص٤٣ - ٤٤.
Hubert Védrine, Continuer l' Histoire, Paris, Fayard, 2007, p. 43 - 44.

وإنه لمن الدال في هذا السياق أن أكثر أنواع الأدب معاصرة لم يسبق لها ألبتة أن حكت قصصاً غريبة، ومآثر أسرية أو وطنية كما تفعل في عصرنا، عصر العولمة و"الإيديولوجيا الكونية". إن الخلط بين المستويات الثلاثة للشرعة الأخلاقية هي هنا مترافقة مع إلغاء التمييز بين الذات والآخر، القريب والبعيد، الحليف والعدو. وآية ذلك أن هذا التمييز سيكون "سياسياً غير صحيح". ولكن العولمة ترسي أسس نمط آخر من الاختلاف، من الغيرية، من الانفصال. وإن ما يبقى من الآخر يختلط نهائياً، إنه محتجز مع العدو. وبذلك يكون لرحلات طواف الأرض مفارقاتها وإحراجاتها، ومظاهر عنفها.

[٦٨] هل ما زال بإمكاننا اليوم كتابة كتاب **وصف العالم لماركو بولو**؟ من ذا الذي لديه الوقت للتجوال عبر الطرق البرية، والبحار، سعياً لاكتشاف ما يبدو أنه قد اكتشف من قبل؟ لماذا يقف المرء ذاته طويلاً عند الرحلة؟ ومع ذلك فإن صورة الآخر، شأنها شأن صورة البعيد، هي جوهرية في تشكيل الذات بوصفها فاعلاً، وكائن كلام وانتماء، حياً، وملتزماً، استودعت فيه المعارف بما في ذلك أكثر التقنيات المعاصرة علمية. وهذا ما فهمه حق الفهم تجار **البندقية** في القرن الرابع عشر الميلادي، وهذا أيضاً ما عبر عنه **يان أرتوس – برتران** في كتابه: **الأرض من السماء وهو كتاب** يمنحنا فرصة إعمال نظرنا في علامات الأرض وجراحها وحركاتها، ويمنحنا أيضاً فرصة لنطأ أرض كل البشر ونشمَّها. ألا يكمن البؤس، الذي ليس هو الفقر، في تشتت المعارف وتحطمها، وفي تشتت القيم والأمكنة التي فيها أصولنا وتحطمها، كما كتب ذلك **مجيد راهنما** Majid Rahnema، وهو دبلوماسي ووزير إيراني سابق، ورجل اقتصاد مشهور[٦٣]؟ وهذا ما سعت إلى البرهنة عليه الحلقة الدراسية (السيمينير) الدولية التي

---

(٦٣) قارن بـ **مجيد راهنما، عندما يطرد البؤس الفقر**، فايار/أكت سود، ٢٠٠٣م.

Cf. Majid Rahnema, Quand la misère chasse la pauvreté, Fayard/Acte Sud, 2003.

وولد راهنما في طهران عام ١٩٢٤م، ومثل إيران في الأمم المتحدة (١٩٥٧ - ١٩٧١م)، يعمل على مشكلات الفقر، وعلى إجراءات إنتاج اقتصاد السوق للبؤس. [المترجم]

انعقدت في مكسيكو بين ١٧ – ١٨ أبريل "نيسان" ٢٠٠٧م، ونظمتها **مؤسسة مجموعة مايان**[٦٤]، **ومجلة الشؤون الخارجية الصادرة بالإسبانية عن المعهد التقني المستقل في مكسيكو**[٦٥] (ITAM) **والمركز الدولي ودرو ويلسون**[٦٦]. وكان عنوان الحلقة ذا دلالة في هذا السياق "**أمريكا اللاتينية: اندماج أو انقسام؟**". وكانت الحلقة ترمي فيما ترمي إليه الترويج لاقتصاد العلاقة، والمصالحة، والتوازن بأن أوصت بتفحص واعٍ، ومتزن وعادل لأرض **أمريكا اللاتينية**.

وبذلك يمكن للشركات ذات الصبغة العالمية، وعلى وجه الخصوص تلك التي ترجع أصولها إلى الديمقراطيات الأوروبية، تلك الشركات التي لا يني ممثلوها يجوبون الأرض يمكنها أن تؤدي دوراً محموداً، وتسهم في تفكيك الأنانية والحواجز التعاونية والوطنية إذا عرفت كيف تطور في الوقت نفسه الانتقال الحر والمتوازن للمعارف التكنولوجية، وكيف تأخذ في الحسبان المعارف والقيم الأصلية للبلاد التي تتجذر فيها تلك القيم والمعارف. إن أوروبا اليوم تهتم، ولكن دون ذلك مصاعب، بإسقاط النزعة القومية عبر مؤسسات التوافق التي تنسج بين الدول وبين الجماعات عرى كثيفة من الواجبات المتزايدة عبر لعبة معقدة من التحالفات والانتماءات والارتباطات المتزايدة. وإذا كانت الشركات في المنظور نفسه قادرة على المستوى الكوني على تقديم حلول مضبوطة، مجددة، تحترم البشر والبيئة فإنها يمكن أن تسهم، إذا توافرت لها الإرادة السياسية والشجاعة، في تملك أفضل وأكثر عدلاً بين البشر لعناصر الكون الأربعة، الماء، والهواء، والأرض، والطاقة في سياق العولمة. إنها تستطيع أن تشكل وسيطاً أثيراً بين الدول والمستثمرين في القطاع الخاص، بين مختلف المجموعات أياً كان نوعها. وقد سبق لعدد من الشركات ذات الصبغة العولمية، المهتمة بالمصالحة بين النمو الاقتصادي والتطور الاجتماعي والحفاظ على البيئة، سبق لها أن التزمت بضرورة

---

(٦٤) *Fundación Grupo Mayan*.

(٦٥) *Instituto Tecnologico Autónomo de México*.

(٦٦) *Centre International Woodrow Wilson*.

إيجاد أو بعث رابط اجتماعي، وهي مهتمة كل الاهتمام بالذكاء الجمعي وبكل الاختلافات على وجه الأرض.

إن التجربة البوليفية لمجموعة سويز للبيئة *Suez environnement*، رائدة خدمات البيئة في الكوكب كله، تشكل، في ضوء الإشكاليات المذكورة أعلاه، تمثيلاً مهماً كل الأهمية لاقتصاد العلاقة، فخلال عشر سنوات من ١٩٩٧م إلى ٢٠٠٧م كانت الشركة الفرنسية الموجودة في بوليفيا تفكر وتعمل انطلاقاً من عالم مختلف كما كان قد فعل ذلك بمقاييس أخرى تجار البندقية في القرن الرابع عشر الميلادي في الصين. لقد وجدت سويز نفسها وهي تعالج إيصال مياه الشرب، وتهتم بجانب من تنقية احتياطي المياه الموجود، مجبرة على استكشاف الميول القومية، ومطالب السيادة والانفصال.

إن سويز عندما كفلت، منذ عام ١٩٩٧م الشركة المغفلة أغواس ديل إيلليماني (AISA) لتستفيد من قروض بمبالغ كبيرة من البنك الدولي، والبنك البين أمريكي للتنمية (BID)، والاتحاد الهندي للتنمية (CAF) أنجزت، بوصفها مسهماً مشتركاً مع بوليفيين [٦٩] وأرجنتينيين ومع البنك الدولي، إبان عشر سنوات في مدينتي لاباز La Paz، وإل ألتو El Alto أكثر من مئة ألف وصلة من الماء الصالح للشرب، أي خمسمائة ألف نسمة أصبحوا يتمتعون بماء الشرب، مما يمثل ٣٣٪ من سكان الضواحي. وقد قدمت هذه الخدمة في إطار من الشفافية المالية و الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التامة. وقد كان جميع موظفي الشركة المغفلة أغواس ديل إيلليماني من البوليفيين، ولم يفت سويز أن تناقش مع ممثلي الجمعيات الفلاحية التي تعد نفسها تقليدياً مالكة للبحيرات التي تؤخذ منها المياه التي تجري عليها عمليات المعالجة. وقد حدد وكيل معتمد سعر المتر المكعب من الماء الصالحة للشرب تعاقدياً، بصيغة قابلة للمراجعة سنوياً إبان مدة الامتياز التي تبلغ ثلاثين عاماً، وترافق ذلك بإجراء مراقبة صارم للإنشاءات الموجودة من قبل. بذلك عاشت الشركة الفرنسية في حياتها اليوم تجربة التكييف المعاصر للأرض البوليفية مع حاجات البشر، وتجربة التمفصل الضروري بين العولمي والمحلي، وبين مستويات الشرعة

الأخلاقية المختلفة في إطار تاريخي وجغرافي، وثقافي متمايز كل التمايز[٦٧]. والذي حدث في عام ٢٠٠١م أن وصول الشركة الأمريكية **بيكتل** Bechtel التي تتفاوض باسم الحكومة **البوليفية** – ولكن دون أن ندري عبر من ولا كيف ذلك – بوصفها صاحبة امتياز تزويد مدينة **كوشابامبا** Cochabamba بالماء، وفي جعبتها مشروع يرمي إلى مضاعفة سعر المتر المكعب من الماء، وصول هذه الشركة، أشعل "حرب مياه" ضارية في **كوشابامبا**. وآية ذلك أن هذا المشروع أساء سمعة النشاط التجاري المتعلق بالمياه، وأسس لإيديولوجية متطرفة للخير والشر وللحرب العادلة، واستثار العواطف، وضروب الحذر والأحقاد، ووضع موضع الشك اقتصاد العلاقة المعقد الذي أرست أسسه شركة **سويز** في مدينتيْ **لاباز وإل ألتو**. حينئذٍ قامت مؤسسة تدعى مؤسسة **سولون** Solón، يديرها **بابلو سولون** Pablo Solón، سفير مفوض لحكومة الرئيس **إيفو مورالس** Evo Morales، وتدعمها مؤسسة **دانييل ميتران** Danièle Mitterrand **فرانس ليبيرتي** France libertés، هذه المؤسسة قررت، أنه ينبغي على كل الشركات "الرأسمالية" التي ترمي إلى هدف وحيد هو استغلال الفقراء لمصلحة الأثرياء والرأسماليين أن تغادر **بوليفيا**. إذنْ، لقد استمرت تجربة شركة **بيكتل** مدة قصيرة جداً، وتسببت في يناير"كانون الثاني" ٢٠٠٧م في مغادرة شركة **سويز بوليفيا** مضطرة، سويز التي كانت تعمل في ظروف اقتصادية وتعاقدية مختلفة كل الاختلاف. حينئذٍ وجدت الحكومة **البوليفية** نفسها عاجزة عن أن تقوم مقام **الشركة الفرنسية** وتأمين المبادئ والحقيقة لتنمية مستدامة ولنوع من الشرعة الأخلاقية الاجتماعية. والذي حصل في الواقع في **كوشابامبا** أن عدداً من مفوضي SEMAPA، وهي منظمة عامة مكلفة من الآن فصاعداً بخدمات المياه، ألقي القبض عليهم مؤخراً بتهمة ممارسة الفساد، مما يثبت أن الأنظمة التقليدية للانتماء لم تعد صالحة. واليوم ارتفعت أسعار المياه في **لاباز وأل ألتو**، ولم تعد الخدمة متوافرة باستمرار، في حين أنها

---

(٦٧) أشكر كل الشكر **أنطوان كوهان** Antoine Kuhan الذي كان مديراً عاماً لشركة **أغواس ديل إيلليماني** إبان الوقائع المذكورة أعلاه، أشكر له تزويدي بالمعلومات عن هذا الموضوع.

لم تنقطع ألبتة خلال أعوام الاستثمار العشرة، وانخفضت أعمال الصيانة، وأما مشروع التوسع فلم يعد محل نظر، ولم يعد هناك شرعة أخلاقية للخدمة العامة كما عبرت عن ذلك بحزن في ١٦ أبريل "نيسان" ٢٠٠٨م، ثم في ٢٣ يوليو "تموز" ٢٠٠٨م **لارازون** La Razón، **المجلة الشهرية البوليفية**[٦٨].

وقد أكدت تصريحات المدير العام لشركة **سويز للبيئة، جان – لوي شوساد** Jean-Louis Chaussade لمجلة **ليزيكو** Les Echos في ٢٣ يونيو "حزيران" ٢٠٠٨م أن المجموعة تأمل في الإسهام في إيجاد "اقتصاد قادر على إعطاء قيمة للأشياء التي ليس لها ما يكفي من ذلك لإرساء أسس إعادة استخدام منتظمة وذكية لكل المواد، وهذا ما يسميه بعضهم اقتصاد التدوير... يمكننا إنتاج كمية الخدمات نفسها باستخدام مادة أقل، وباستخدام طاقة أقل [٧٠] وموارد أقل"، مما يعني توزيعاً أفضل عاماً للموارد من أجل تنمية مستدامة.

ولا تتوقف القصة هنا. عندما عُرض في عام ٢٠٠٦م فيلم **أسفيركوف العظيم**[٦٩] للمخرج الألماني **فلوريان أوبيتز** Florian Opitz، بالاشتراك مع الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد **جوزيف ستيغليتز** Joseph Stiglitz، وهو فيلم مخصص لخصخصة تلك الثروات النادرة والثمينة في العالم، وهي الماء والكهرباء والصحة ووسائل النقل، عمق عرضه رسوخ بنية إيديولوجية الخير والشر، وإيديولوجية حرب الضعفاء العادلة ضد الأقوياء.

---

(٦٨) جاء في **مجلة لا رازون** الصادرة في ٢٣ يوليو "تموز" ٢٠٠٨م: "في حالة لاباز كان قرار طرد شركة **أغواس ديل إيلليماني**، ذات الأصل الفرنسي قراراً أقل ما يقال إنه مؤسف لأنها منذ بداية عملياتها أجرت تحسينات كبيرة في خدمة المياه، حتى إننا نستطيع القول إن خدماتها كانت ذات كيفية عالية... ولم تكن نشاطاتها تكلف الدولة ولا المجلس البلدي في لاباز أي شيء، وكانت تسعيرة المياه لديها مناسبة؛ بل إنها كانت في حالة مدينة **إل ألتو** مخفضة. وفي المقابل أعلنت للتو **الشركة العامة والاجتماعية للمياه والصرف الصحي** (EPSAS) التي خلفت شركة أغواس دل إيلليماني أنها بحاجة إلى استثمار ١٠٧ مليون دولار على الأقل للسنوات الخمس القادمة لتستطيع تأمين تمويل مدينتي لا باز و إل ألتو بالماء".

(٦٩) *Der Grosse Ausverkauf*.

ويعالج الفيلم معالجة خاصة حرب المياه في كوشابامبا، ويقدمها بوصفها نتيجة "خصخصة"، في حين أنه لم يكن هناك خصخصة، دون أن يطرح في أي وقت السؤال المركزي بداهة، وهو السؤال المتعلق بالظروف التي وصلت بها المجموعة الأمريكية بيشتل إلى بوليفيا، وبكيفية منحها امتياز تقديم خدمة المياه: هل كان امتيازاً بغير حق، أم فساداً؟، ودون أن يذكر الفيلم ألبتة أيضاً المشكلات الخاصة بالدولة البوليفية وبالمنظمات "العامة" المكلفة بإدارة خدمة المياه. يقسم فلوريان أوبيتز العالم بسهولة، وبطريقة مبتسرة ابتساراً يصل حد التزوير العالم إلى معسكرين، معسكر الأوغاد، الغرباء و"الأغنياء" الرأسماليين، ومعسكر الأخيار، الذين هم فلاحو كوشابامبا والجبال، وليس هناك أي تلميح إلى ضرورة القناعة في استخدام المواد الأولية على الكوكب، ولا إلى ضرورة توفير المادة وليس الخدمة، ولا إلى ضرورة العناية بالشبكات وبنائها. ولم يتأمل الفيلم ألبتة مسألة الفساد. ولم يعرض الفيلم بالطبع إلى العمل الإيجابي الذي قامت به الشركة الفرنسية، وهو عمل كان يُفترض/ ويمكن أن يكون مستداماً في لاباز وفي إل ألتو، أهدافه التوازن بين العرض والطلب، وبين الإدارة المتوازنة للمياه، كما أنه لم يعرض أيضاً للعلاقات بين البشر، سواء كانوا سياسيين، أو أعضاء في الشركة أو أعضاء في الجمعيات الفلاحية. وإنه لمن المهم بالطبع أن نلاحظ أن هذا الفيلم الذي لم يكتب له الانتشار الواسع لا في أوروبا ولا في خارجها عُرِض بدءاً من ١٧ يونيو"حزيران" في بعض صالات السينما في مدينة مكسيكو، أي قبل ستة أسابيع من استفتاء يوم الأحد السابع عشر من يوليو"تموز" ٢٠٠٨م حول إمكانية الاستثمار الخاص في شركة البترول الوطنية المكسيكية (PEMEX).

ينتج من كل ذلك أنه من المستعجل تعلم كيفية التواصل حول الأدلة المادية للفاعلية، وللتبادل، وحول الأدلة غير المادية للثقة والعيش المشترك في آن معاً. وأنه من المستعجل تعلم كيفية التواصل حول الشرعة الأخلاقية والمسؤولية، حول التعددية. لكي لا تنتصر المشاعر الإيديولوجية، والقوى المدمرة للانفصال والفساد. إن جاك آتالي، وهو يصف ما يؤمله ويسميه "الموجة الثالثة للمستقبل: الديمقراطية الجامعة

hyperdémocratie"، يتحدث بالضبط عن "الشركات الجديدة العلائقية" التي تنشر تلك الديمقراطية الجامعة:

ستظهر شركات علائقية جديدة، وخصوصاً في إدارة المدن، وفي التعليم، وفي الصحة، وفي مكافحة الفقر، وفي إدارة البيئة، وفي حماية المرأة، وفي التجارة العادلة، وفي الأغذية المتوازنة، وفي إضفاء القيمة على المجاني، وفي الدمج الاجتماعي، وفي مكافحة المخدرات ومراقبة المراقبين...

وسينبغي على الدول إذا أرادت مقاومة موجات هجوم الأسواق، أن تركز اهتمامها على بعض الوظائف السيادية: الأمن، والطمأنينة العامة، والحرية، والدفاع عن اللغة، وإمكانية وصول الجميع، مقيمين كانوا أو عابرين، إلى الخدمات الصحية والمعرفة، وأن يكون لهم حق الحصول على الحد الأدنى من عائد التأهيل المهني[٧٠].

وبذلك تجد من جديد الوظائف السيادية للديمقراطيات دورها بفضل "شركات علائقية" تعمل عملاً محسوساً، وعبر الأرض كلها على هذا التوازن البارع والصعب بين الحدود والمبادلات.

[٧١] في الخاتمة

En conclusion

إذا تصفحنا من جديد كتاب **الأرض كما نراها من السماء** دون أن نتردد في الوقوف عند هذه أو تلك من الصفحات التي يمكن أن تكون قد أغرتنا فلنتذكر أنه من المناسب حسب الفكر **الصيني الطاوي لزهوانغزي** أن نترك على الدوام النزعة الطبيعية للأشياء هي التي تعمل، وأن نهتم بتطورها، وأن نتحد مع الإجراءات التي تبدو لنا أكثر الإجراءات تهديداً، ونستند على الواحد والمتعدد، ونتمتع بحس اللامتوقع، وأن نأخذ في الحسبان، على وجه الخصوص، استمرارية الفوارق كما كانت حال الرجل في قلب السيل. ذلك ما يعلمنا إياه طواف الأرض. وينضوي الإناسي **جيوردانو برونو**

---

(٧٠) جاك آتالي، م. س، ص ٣٧٣، ٣٧٥.

تحت لواء المنظور نفسه عندما يؤكد أن الواقع غنيٌّ غنىً مدهشاً، وأن التفكير الإنساني لا حدود له، ولو كان ثمن ذلك حياته، كما كان الحال في سياق القرن السادس عشر الميلادي. الاتحاد مع أكثر الإجراءات تهديداً، والاستناد على الواحد والمتعدد بهدوء ووضوح، بسمو وعمق، ذلك هو في الحقيقة التحدي الذي ينبغي أن نتجاوزه في بداية القرن الحادي والعشرين لكي نسهم في إخفاق الإيديولوجيات والأحقاد، ومظاهر الأنانية والتملك غير المستحق، وفي إخفاق أكثر أشكال العنف قتلاً. ألن يكون بالإمكان مجيء عالم أكثر عدلاً، وانسجاماً بين الإنسان والطبيعة، وبكلمة واحدة عالم من التعايش المختلف؟ بذلك ربما ستظهر تقنيات جديدة، كانت حتى يوم الناس هذا خارج حدود التفكير، تقنيات عالم متميز حقاً.

إن الرجل الذي أطل برأسه في مسقط المياه المرتفع جداً على مرأى من الحكيم **كونفوشيوس**، والعصفور الذي غطس بين أمواج النهر ليفلت من الصقور الجارحة على مرأى من **فري لويس دو ليون** احتفظا بهويتهما وكرامتهما بوصفهما إنساناً وعصفوراً، وانبجسا متجددين، أكثر قوة، أكثر حياة. إن كل صورة من صور **يان أرتوس – بيرتران** التي تظهر بعض وقائع الأرض الصغيرة مكبرة، مستعملاً بمهارة التقطيع والاختلاف، هي قصة تنطق بالكونية، والخاص والفردي. يقول الشاعر:

في أمسيات الصيف الزرقاء سأسلك الدروب الضيقة.

أليست عبارته دعوة مغرية لاتباعه؟

إذا كانت الشركة المعولمة تستفيد بعض الأحيان من تخريب العالم، فإنها تجد نفسها أيضاً محجوزة ضمن "تنوع المكونات أو الطبائع" إذا اقتبسنا عبارة **جيوردانو برونو**، وهذا ما يجبرها على إعادة النظر في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والدين والقانون، أي في كل ما يصنع الهوية، الفوارق والاختلافات، السمو والعمق، كل ما يصنع العالم. إن الأرض بالتأكيد واحدة، ولكن مستويات التنمية والتنافسية بين البلدان هي غير متساوية حتى إن تحرير المبادلات بين البشر ليس أمراً بديهياً ألبتة.

إن الشركة المعولمة، وهي تقبل التوقف عند الرحلة، وعند تطواف الأرض ودولها تصبح "علائقية" حقاً، وتجد مجال تأثير جديد متمثلاً في إعادة اختراع أشكال جديدة من الروابط الاجتماعية. وهو ما يحدده **أفلاطون** بالعبارات التالية:

يقول الحكماء... إن ما يجعل السماء والأرض قائمتين معاً، ويجعل الآلهة والبشر مرتبطين معاً هو الاتفاق، والصداقة والانتظام والقناعة والعدل، ومن أجل هذا يسمون كل ذلك العالم، وليس الفوضى والإفراط[٧١].

يتضح اليوم أكثر من أي وقت مضى أن التوقف عند مسارات تطواف الأرض، عند الرحلة في هذه الشروط لتحقيق "الاتفاق والصداقة والانتظام والقناعة والعدل"، لكي يتكون "العالم"، وهذا هو - بعد كل حساب - ما تسعى إليه الديمقراطية، كل هذا يتضح أنه أمر مستعجل.

---

(٧١) أفلاطون، جورجياس، ٥٠٧ e6 - ٥٠٨ a4.

Platon, Gorgias, 507e6 - 508a4.